الباب الرابع

مناسبات إسلامية وقضايا عامة

الهجرة انطلاق وانتصار

الحمد لله ، كتب النصر والتأييد لعباده المخلصين : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)[1].

وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله ، أوذى فى سبيل الله وهو بمكة فصبر ، وأمره الله بالهجرة إلى المدينة فهاجر ، وكافح فى سبيل تمكين العقيدة ، ونشر دعوة الإسلام ، وأيده الله بقوته ونصره على أعدائه : (كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)[2] . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، الذين جاهدوا فى الله حق جهاده . فكتب لهم ربهم عز الدنيا وسعادة العقبى ، (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) .

أما بعد فيأيها الإخوة المؤمنون :

فى تاريخ الأمم أحداث تطرأ عليها ، ويكون لها أثر بالغ فى تطور حياتها ، وبقدر ما يكون لهذه الأحداث من أثر يكون شأنها وخطرها ، والمجتمعات لا يمكنُ أن تعيش فى ضعف أبدًا ، ولا يمكن أن تحيا مغلوبة على أمرها دائماً ؛ فالضعف ليس من صفات الإنسان الكامل ، والذلة يأنف منها الرجل الفاضل . . ولأن الإسلام لا يرضى لأبنائه حياة الضعف والهوان فهو ينعى عليهم الإخلاد إلى الأرض ، والتعلق بها ، والرضا بالواقع ،

(١) سورة غافر : ٥١ . (٢) سورة المجادلة : ٢١ .

والاستسلام للظلم والأذى ، لذلك نرى القرآن الكريم يسجل بسوء العاقبة على من يرضون بالحياة الذليلة ، فيقول تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيها ؟ فَأُولَئِكَ مأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ، لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ، فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا. وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيرًا وَسَعَةً)[1] .

وإن من الأحداث التى أثرت فى مسار الدعوة الإسلامية وغيرت من وجه التاريخ هجرةَ الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة . . .

فلقد مكث النبى بمكة ثلاث عشرة سنة ، يدعو إلى الله على بصيرة ، ويهدى الناس إلى الحق فى تؤدة ومهل ، ويمحو آثار الجاهلية الطامسة ، وما خلفته فى العقول من خرافة وما تركته فى القلوب من زيغ وهوى ، وفى الأعمال من رجس وفساد . وظل هذا النبى الكريم يفك أغلال القرون الأولى ، ويعلى قدر الإنسان ، والإنسانية لا يعلو قدرها بمظاهر فارغة ، ولا بدعاوى تدّعى بدون مضمون ، إنما يعلو قدر الإنسان إذا صفت نفسه ، واستنار طريقه ، وعمل لربه كما يعمل لنفسه ، وسعى لدينه كما يسعى إلى دنياه ، وتلك هى أهداف الإسلام ، التى يعمل من أجل تحقيقها ، وتوجيه الناس إليها – كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلفاً مألوفاً ، سهلا واضحاً ، أبعد الناس – فى دعوته إلى الإسلام – عن التنفير والإغراء ، والإغواء ، كان يطلب من الناس أن يمكنوه من أن يعرض ما عنده ، ثم يفكروا فيه . هكذا أمره الله : (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلهِ

(١) سورة النساء : ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠٠ .

مَثْنَى وَفُرَادَى ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ، مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ – إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)[1] .

فإذا فكر الإنسان فى هذه الرسالة تفكيرًا سليماً ، وإذا وجد المجتمع الذى يمحص ما يعرض عليه هذا التمحيص السديد ، فإن الأمر لا بد من أن ينتهى إلى النهاية التى ذكرها الله فى كتابه الكريم : (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ)[2] إلا أن خصوم الإسلام لجأوا إلى وسائل رخيصة فى النيل من الدعوة وصاحبها ، لجأوا أولا إلى التشويش على القرآن الكريم ، وإثارة الشغب فى مجالس قراءته : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)[3] ثم لجأوا إلى السخرية والاستهزاء من المسلمين : (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ . وإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ . وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ . فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)[4] ، وتنوع الأذى على صحابة رسول الله ، وهم صابرون محتسبون ، حتى ارتفعت صرخاتهم إلى السماء : (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَالِمِ أَهْلُهَا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا)[5]. وكانت خاتمة الصراع بين جبابرة الوثنية وبين الحنيفية السمحة أن يدبروا مؤامرة لاغتيال محمد ، واجتمعوا

---

(١) سورة سبأ : ٤٦ و ٤٧ .
(٢) سورة الرعد : ١٧ .
(٣) سورة فصلت : ٢٦ .
(٤) سورة المطففين : ٢٩ و ٣٠ و ٣١ و ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ .
(٥) سورة النساء : ٧٥ .

فى ليلة حالكة لإنفاذ الفكرة الغادرة وترصدوا له بسيوفهم الآثمة ، فيا لله ! ما أجرم القوم ! وما أهول الموقف ! لقد كان قلب الدهر خافقاً ، وعين الزمان ساهرة ، ولو تم للمشركين ما أرادوه تلك الليلة لقضى على هذه الدعوة ، وهى لمَّا تزل فى أول خطواتها ، ولانطفأ ذلك النور الذى انبثق ليبدد ظلام العالم ، ولينشر الهدى والأمن والسلام . لكن الله غالب على أمره ، وأين مكر القوم من رقابة الله : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)(١) .

علم الرسول بما بيَّته القوم المشركون ، فخرج ومعه صاحبه أبو بكر الصديق ، إلى غار فى الجبل بأسفل مكة ، فدخلاه وبقيا به ثلاث ليال ، وقريش قد أسقط فى يدها ، إذ لم تنجح حيلتها ، ولم تصل إلى ما تريد . فجعلت مائة ناقة لمن يظفر بمحمد وصاحبه ، وكانت الفتاة الصغيرة أسماء بنت أبى بكر ، تروح عليهما كل مساء فى خفاء ، تقطع فى جوف الليل الطريق الشاق تحمل إليهما الزاد والماء ، وبلغ من شجاعة الفتاة ، أن يقابلها أبو جهل الأحمق فيسألها ما شأن أبيها؟ وأين هو ؟ فتتجاهل الأمر ، فيلطمها الأثيم على وجهها لطمة يطير لها قرطها من أذنها ، وهى مع هذا لا تبوح بمكنون سرها .

انطلق المشركون فى كل مكان فى الصحراء يبحثون عن محمد وصاحبه ، وعند الغار تنتهى آثار السير ، فأحدقوا به من كل جانب ، ويسمع أبوبكر رضى الله عنه وقع أقدامهم فيضطرب قلبه ، ويهمس فى أذن الرسول : إن قتلت أنا فإنما أنا رجل واحد ، وإن قتلت أنت هلكت الأمة ، إلا أن الرسول يبقى ثابت الجنان ، واثقاً بنصر الله وتأييده ، معلقاً قلبه ببارئه

(١) سورة الأنفال : ٣٠ .

وخالقه ، ويقول لصاحبه : «يا أبا بكرٍ ما ظَنُّكَ باثْنَيْن الله ثَالِثُهُمَا ؟ لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنَا) ، وفى ذَلكَ يَقُولُ القرآن الكريم : (إلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ ، إذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَا فِى الْغَارِ إذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[1] .

ورد الله الذين كفروا بغيظهم ، لم ينالوا خيراً ، فحيل بينهم وبين ما كانوا يريدون ، وارتدوا على أعقابهم خائفين ، ووصل الرسول وصاحبه إلى المدينة فى حفظ الله ورعايته ، ويستقبله أهلها أكرم استقبال ، ويجد فيها قلوباً تفتحت لدعوة الحق ، فآزرتها وأيدتها ، وتكونت الدولة المؤمنة المجاهدة ، والأُمة المؤتلفة المتحابة ، التى لا تعرف عصبية لجنس أولقبيلة ، فالجميع قد انصهر فى بوتقة واحدة ، وأصبحوا جسماً واحداً وبناءً متراصًّا متحداً يعمل كل فرد فيه لخير هذا المجتمع ، ولإعزاز هذا الدين ، وأحب أهل المدينة إخوانهم المهاجرين وآثروهم على أنفسهم ، وزكى القرآن الكريم صنيعهم حيث قال تعالى : (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إلَيْهِمْ ، وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[2] .

أيها المسلمون :

إذا أمعنا النظر قليلا فى حادث الهجرة وساءلنا أنفسنا ؛ هل كانت هذه الهجرة فراراً من الموت أو طلباً للنجاة ؟ كانت الإجابة الفذة : كلا ، بل إنها كانت انتقالا بالعقيدة من وطن كثر فيه الباغى ، وقل فيه الناصر ،

(١) سورة التوبة : ٤٠ .
(٢) سورة الحشر : ٩ .

إلى وطن آخر تأمن فيه على نفسها ، ويستطيع المؤمنون أن يجدوا تربة طيبة فيغرسوا فيها شجرة التوحيد .

لم تكن الهجرة فراراً ، بل كانت انتصاراً ، لأنها كانت انتقالا بالدعوة إلى آفاق واسعة ، وإلى مجال تستطيع فيه أن تنمو وتنتشر ، وأن تثبت هدايتها إلى الناس فى مشارق الأرض ومغاربها . حتى تعلو كلمة الله ، وتسود رايته ، وينتصر جنده ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1] .

أيها المسلمون :

إن سلفكم الصالح حينما أرادوا أن يجعلوا لأمتهم تاريخاً استعرضوا أعظم ذكرياتهم حادثة حادثة ، فلم يجدوا إلا الهجرة بدءاً للتاريخ ، ومفتتحاً لكل عام جديد . كانوا يستطيعون أن يؤرخوا بميلاد النبى أو بيوم بعثته إلى الناس كافة ، ولكنهم أدركوا فقه الإسلام حينما جعلوا الهجرة بداية تاريخهم الحافل بأمجد الذكريات ، فهى لا تكرم بوصفها سفراً من بلد إلى بلد ، فالموظف يسافر أكثر من هذه المسافة ، والتاجر يقطع أضعافها سعياً وراء ربح قد يكون جزيلا أو قليلا ، وإنما كرمت الهجرة ، لأن المسلمين أرخصوا مصالحهم الخاصة إلى جانب العقيدة ؛ فكان هذا معناه أن الفرد لا يعيش لنفسه فحسب ، بل عليه أن يحيا لأمته ولدينه وأن يكافح لتثبيت ما تقدسه الأمة من فضائل، وما يحث عليه الدين من عزة وحرية وكرامة ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2] .

وإن ذكريات الهجرة تفد علينا ، وداخل إطارها صور للشرف العالى ،

---

(١) سورة الصافات : ١٧١ و ١٧٢ و ١٧٣ . (٢) سورة البقرة : ٢١٨ .

والتضحية الكريمة ، تعرض علينا نماذج رفيعة للأمانة والوفاء ، والشجاعة والإصرار على مرضاة الله ، مهما يجد الإنسان من مشاق ، تفد علينا لتعلمنا أن الأمم بحاجة إلى أن ترخص مالها وروحها فى سبيل عقيدتها ، وفى سبيل حرية بلادها . فهذه الهجرة تطل على المسلمين وتهيب بهم فى قوة وشدة : أن اثبتوا مكانكم ، وكافحوا أعداءكم ، وحرروا أوطانكم ، وعيشوا أحرارًا فى بلادكم ، وأزيلوا آثار العدوان عن كل بقعة من أرض العروبة والإسلام ، لنتعلم من الهجرة صناعة التضحية والوفاء والإيثار ، وصناعة الخلق الرفيع ، لنصنع ما صنع أسلافنا من إبائهم للضيم ، ومن رفضهم للمذلة ، ومن ثورتهم على العدوان والمعتدين ، لندْرُس سيرة أجدادنا الذين حرصوا على الموت أشد من حرصهم على الحياة ، فأعزهم الله ، وكتب لهم النصر فى هذه الحياة ، والفوز المبين يوم يلقونه فى جنات النعيم : (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) .

فاتقوا الله عباد الله ، وأخلصوا سرائركم ، تخلص علانيتكم ، وراقبوا ربكم فى كل تصرفاتكم ، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«لا هِجْرَةَ بعْد الْفَتْحِ ولَكِنْ جِهَادٌ ونِيَّةٌ ، وإذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا »[1] .

أو كما قال .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

مولد النبى عليه الصلاة والسلام

الحمد لله الذى اصطفى محمدًا من ولد آدم ، فأرسله بشيرًا ونذيرًا ، وجعل الإسلام دينه الذى ارتضاه خاتمة الشرائع إلى يوم الدين ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ، فيا عباد الله ، إننا نعيش اليوم فى أعظم ذكرى نعتز بها ، وفى عيد من أعيادنا الإسلامية نسعد بروحانيته فى كل عام مرة ، ذكرى ميلاد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعيد إشراقه على هذه الأرض بشرى للناس ورحمة .

فماذا يستطيع اللسان أن يقول فى ذكرى مولد النبي ، وهو سيد البشر من كل قبيل ، فى كل عصر وفى كل جيل ؟ ومن أين للقطرة أن تصف البحر ؟ ولذرة الرمل أن تصور الجبل ؟ وللهباءة أن ترسم الشمس ؟

إن قصارى ما يبلغه اللسان أو القلم أن يشير فى هيبة – يا رسول الله – إلى مقامك الأسمى ، وإلى محلك الأسنى، وإلى مكانك الرفيع . فقد جاء مولدك الأغر بشيرًا بميلاد الحق الذى توارى مناره ، وباستهلال الخير الذى طال انتظاره ، وباسترداد القيم العالية ، والمثل السامية ، مكانتها بعد ذلة وهوان ، إذ بعثك الله على فترة من الرسل ضل فيها الناس رشادهم ، وجحدوا قلوبهم وعقولهم ، فصاروا أصناماً تعبد أصناماً ، وأحجارًا تقدس أحجارًا ، وملأوا الارض خرافات وأباطيل وأوهاماً ، وانتهز الأقوياء فرص الجهالة والضلالة

فاستعلوا على الشعوب ، واستبدوا بالعقول والقلوب ، وسخروا لشهواتهم ومنافعهم خيرات الأرض وقوى البشر ، فإذا أكثرُ الناسِ عبيدٌ للقلة ، وإذا القلة طبقات يسخر بعضها بعضاً ، وهؤلاء وأولئك غرق فى الضلالة ، وأسرى للشهوات ، أعداء لكل فضيلة ، حتى ضجت الأرض مما تنوء به من شر وبغى ، وهمجية وعدوان .

حينئذ لطف الله بعباده ، فاصطفاك يا صفوة خلقه لتبلغهم آخر كتبه ، وتهديهم بآخر شرائعه ، فكنت الغيث تقاطر على نبات ذَوَى فردّ إليه الحياة ، وكنت الضوء للضالين الحيارى بصّرهم طريق النجاة ، فاسترد البشر إنسانيتهم وكرامتهم ، إذ عبدوا الخالق الأحد ، بعد أن عبدوا الخشب والحجر ، فتطهرت مشاعرهم من أرجاسها ، وانطلقت عقولهم من أغلالها ، وأنفوا أن يستذلهم الأقوياء ، فتحرروا من قيود الاسترقاق ، وحطموا أصفاد الاستعباد ، وصار الشرف لا يرجع إلى لون أوجنس ، أو حسب أو مال ، بل صار بالتقوى ومكارم الأخلاق ، وبما تشمل التقوى من طاعة الله ، ودفاع عن الحق ، وحماية للوطن ، وبر يهدى إلى الجنة ، وعلم نافع يرتقى بالأمة ، وخيرات تبذل لنفع الناس .

وإذا كانت الوثنيات والفلسفات قد استغلق الصواب عليها ، فأغرقت فى المادية أو الرهبانية ، فإن شريعتك الغراء هى التى لاءمت بين المادة والروح أحسن ملاءمة ، وربطت بأحكم رباط بين الدنيا والآخرة ، فجعلت لكل منهما نصيباً من الوجدان والعقل والعمل ، لا يتجاوز نطاقه ولا يطغى . فلم يكن عجيباً أن صار المسلمون الأولون بين عشية وضحاها سادة العالم ، وخير أمة أخرجت للناس ، وصدق الله العظيم فى قوله : (.. كُنْتُمْ خَيْرَ

أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . .)[١] .

إن مئات الملايين من أتباعك يا رسول الله يديرون شريط الزمن ، ليشهدوا مناظر رائعة من سيرتك المتسمة بالعبقرية ، لا يستطيع أن يدانيها تاريخ أحد من البشر .

فقد كنت فى صباك تبرأ من أرجاس قومك ، وكنت مطهّرًا من أوضار الناس ، حتى سمّوك الصادق الأمين ، ثم حكّموك فى خلافهم المنذر بالحرب ، إذ تنازعوا على من يضع الحجر الأسود فى مكانه من الكعبة الشريفة ، ورضوا بما أشرت به ، أن يوضع فى ردائك ، وتمسك كل قبيلة بطرف ، ثم أرسيته أنت فى مستقره ، كأنما كان هذا إيذاناً بأنك صاحب الرسالة التى تعيد إلى الناس صحة العقيدة ، وتردهم إلى صواب الدين ، وتسمو بهم إلى الحنيفية السمحة ، التى دعا إليها إبراهيم عليه السلام .

سيدى يا رسول الله . . تخلو فى الغار ، عزوفاً عما يعبده قومك من أوثان ، فتناجى ربك الليالى ذوات العدد ، مناجاة الفطرة السليمة ، والنفس العظيمة ، والقلب الكبير ، والعقل المتطلع ، فإذا ما اصطفاك الله للرسالة العظمى صدعت بالدعوة ، وسفّهت الأباطيل ، وسخرت من الوثنية فى غير ما تردد ولا خشية ، وبين الذين دعوتهم إلى التوحيد أعمام وأقارب ، عزيز عليهم أن تبطل دينهم ، وأن تسفّه أحلامهم ، ولهم ولغيرهم حول وطول ، وأنت لا حول لك ولا طول ، إلا الإيمان الذى لا يحيد ، والعزم الذى لا يميد ، فصبرت على الأذى وطال صبرك ، حتى ظهر الحق ، وزهق الباطل .

سيدى يا رسول الله . . . ها أنت ذا فى حياتك ، الأسوة والقدوة ، والمثل الأعلى فى قولك وفى عملك ، وفى بيتك وبين قومك ، وفى سلمك وفى حربك ،

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠ .

فكنت كما قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : أجود الناس كفًّا ، وأجرأهم قلباً ، وأصدقهم حديثاً ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآك بديهة هابك ، ومن خالطك أحبك .

كنت يا رسول الله سمح النفس ، رَضِيَّ العشرة ، جميل الصحبة ، كما قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا فى بيته ألين الناس ، بسّاماً ضحاكاً .

وكنت أشد الناس عزوفاً عن الزهو والخيلاء ، ومتاع الدنيا ، جاءتْ إليك هدايا الملوك والأمراء ، والغنائم والصدقات فلم تستأثر منها بشىء ، بل أنفقت مالك كله فى الخيرات ، وساعدت به ذوى الحاجات ، وبذلته فى مصالح الإسلام والمسلمين ، فلم يمتلئْ جوفك قط ، ولم تسأل أهلك طعاماً ، فإن أطعموك أكلت ، وما قدموه قبلت ، وما سقوك شربت .

وبلغ من تواضعك وزهدك أنك كنت ترقع ثوبك ، وتخصف نعلك ، وتحلب بيدك شاتك ، فضربت لقومك المثل بأعمالك كما ضربته بأقوالك .

وكنت سخيًّا بما تملك أسخى من الغمامة المثقلة ، وأسبق بالخير من الريح المرسلة ، تحمل الضعيف ، وتكسب المعدم ، وتطعم الجائع ، وتكسو العارى ، ما قلت يوماً لطالب عطائك : لا ، وما أعرضت عن طالب قط ، فإن سئلت وأنت لا تجد ما تعطى وعدت وعدًا جميلا ،انتظرت ما يفتح الله به .

وقد خلص جودك لله ، فاختصصت به المحتاجين ، حتى إنك آثرت أهل الصّفّة[1] على فلذة كبدك وحبة قلبك ، إذ شكت إليك ابنتك فاطمة الزهراءُ ما تلقى من عنت فى عملها بدارها ، وسألتك خادماً يكفيها بعض المشقة ، فقلت لها : لا أعطيك وأدع أهل الصّفّة ، تطوى بطونهم من الجوع .

---

(١) جماعة من العباد النساك الفقراء كانوا يقيمون بناحية من المسجد .

وكنت أشجع الناس دفاعاً عن دينك ، وحماية لمحارم الله ، طالما سبقت الأبطال من أتباعك إلى الصدارة ، حتى قال على بن أبى طالب : كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو.

فإذا انتصرت لم يبطرك الظفر، وإن كانت الأخرى لم تبتئس ولم تيأس ، فأنت فى الحالين منتصر على النفس ، ويا له من نصر عظيم .

انتصرت على الطغاة الذين آذوك ، فعفوت عن مقدرة ، وظفرت بمن صدوا عن سبيل الله وعادوك ، فصفحت الصفح الجميل ، وكنت فى المأزق المثير للغضب كريم النفس ، فقد طلب منك أصحابك يوم أحد أن تدعو على المشركين الذين شجوا وجهك الكريم ، وكسروا رباعيتك حتى سال دمك الطاهر على وجهك ، فرددت عليهم بأنك لم تبعث لعّاناً ، ولكن بعثت داعياً ورحمة ، وقلت : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون .

وبلغ من إيثارك للسلام أنك لم تترك طريقاً من طرق السلام إلا سلكته ، ولم يدعك المشركون إلى صلح لا يعوق الدعوة إلا قبلته ، لان الإسلام إخاء ومحبة وحرية ومساواة ، وسلام ، أما الحرب فإنها أمر طارئ اضطرك إليه الأعداء اضطراراً لم تجد منه بدًّا ولا مناصاً ، ولهذا رفضت أن يسمى الوليد باسم حرب ، فقد أراد على كرم الله وجهه أن يسمى ابنه الأول حرباً فسميته أنت : حسناً ، ثم أراد أن يسمى ابنه الثانى حرباً فسميته : حسيناً .

أيها المسلمون . . .

اليوم يستعرض مئات الملايين من المسلمين لمحات من سيرة المصطفى ، فيجدون فيها المثل الأعلى للكفاح لنصرة دين الله ، والدفاع عن الحق ، والدعوة إلى الخير والجهاد فى سبيل الله ، والحض على الفضائل والاعتصام بها ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو الأسوة ، وهو القدوة ، وهو الإمام ، وصدق الله العظيم فى قوله : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[1] .

(١) سورة القلم : ٣ .

الإسراء والمعراج

الحمد لله الذى امتن على عباده برسوله المبعوث رحمة للعالمين ، وأكرمهم برسالته الخالدة إلى يوم الدين ، وأشهد أن لا إلـه الله ، وحده لا شريك له ، أكرم عبده محمدًا فى ليلة الإسراء والمعراج ، فأراه من آياته الكبرى ، وأفاض عليه من رحمته وتشريفه عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، تشرف بالعبودية كما تشرف بالرسالة الإلـهية فنال الحسنَيَيْن ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد : فيقول الله سبحانه فى كتابه الكريم ، بسم الله الرحمن الرحيم :

(سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[1] صدق الله العظيم .

أيها المسلمون : تمر بنا هذه الأيام ذكرى غالية على كل مسلم ، هى ذكرى الإسراء والمعراج ، وقد شاءت إرادة الله أن يجعل مكان هذا الحادث العظيم بيت المقدس ، أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومجمع الأنبياء ليثبت فى يقين الأمة المحمدية ومشاعرها معنى الوحدة بين أرجاء الوطن المسلم ، ويرمز إلى الرباط الوثيق بين المسلمين أينما كانوا ، وبين مسرى نبيهم الكريم ومعراجه.

والإسراء والمعراج كمعجزة من معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم — كانت وما تزال تثير نقاشاً كبيراً ، وتتصل بمعان كثيرة .

فأما النقاش فإنه يدور حول أمرين ، أولهما جانب الإعجاز فى وقوعهما ،

---

(١) سورة الإسراء : ١ .

وثانيهما : أكان أحدهما أو كلاهما بالروح فقط ، أم بالروح والجسد معاً . . . ؟

فأما جانب الإعجاز فيهما فإن المعجزة المحمدية تخاطب دائماً العقل ، بعكس معجزات الأنبياء قبله ، حيث كانت تخاطب الجوارح ، فمعجزة موسى حين ألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين – هى معجزة بصرية ، يرى المشاهدون حدوثها فتبهرهم ، وتؤدى بهم إلى الإيمان ، أو إلى العناد .

ومعجزة عيسى فى إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، هى أيضاً معجزة بصرية تؤدى بالناس إلى الاقتناع أو إلى الإنكار .

فأما معجزة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله سبحانه لم يرد لها هذا المستوى المادى ، وإنما جعلها تخاطب العقل ، وتثير التفكير ، فكانت آيات القرآن فى إعجازها الخالد لكل الأجيال من البشر – أعظم مصداق لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى معجزة كما رأينا لا تنتهى بمجرد حدوثها ، شأن معجزات الأنبياء قبله ، ولكنها مستمرة متجددة أبدية ، إلى أن يقوم الناس لرب العالمين .

والقرآن : أيها المسلمون هو المعجزة الكبرى الدالة على صدق النبوة ، ولزوم الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم . فأما ما عداها من الأحداث والدلائل فقد كانت أحداثاً لها قيمتها فى حياة النبى ، ولها حكمتها فى تأييد الدعوة المحمدية .

وقد جهد النبى دائماً أن يصرف الناس عن أن يقفوا أمام المعجزة أو شبه المعجزة التى تخاطب الجوارح ، ومن ذلك ما حدث يوم مات ولده إبراهيم ،

حين انكسفت الشمس ، فقال الناس : انكسفت لموت إبراهيم ، فقال رسول الله :

« إنَّ الشَّمْسَ والْقَمَرَ آيَتَان مِنْ آيَاتِ الله ، لا يَنْكَسِفَانِ لمَوْت أَحَد وَلا لحَيَاته »[1] .

فإذا نظرنا إلى الإسراء والمعراج بالنسبة إلى النبي قلنا : إنه كان معجزة ، لأنه هو الذى أُسرِىَ به ، وهو الذى عُرج به إلى السموات العلا ، وهو الذى رأى ما رأى من جلال الله ، وعظمة الكون وحقائق الوجود . أما الناس فإنهم لم يروا شيئاً ، وإنما سمعوا من الرسول إخباراً بالغيب الذى لم يطلع عليه سواه ، وكان عليهم فى هذا الوقت أن يصدقوا إن كانوا مؤمنين ، أو يبقوا على حالهم إن كانوا كافرين . وليس هذا شأن المعجزات التى تأتى لتأييد النبي ، وحمل الناس على الإيمان به ، وهجر الكفر.

والجانب الآخر كون الإسراء والمعراج بالروح والجسد معاً ، أو بالروح فقط. . والرأى الذى يطمئن إليه العقل ، ويعتقده القلب هو أن كليهما كان بالروح والجسد معاً .

ورد بهذا القرآن فى صريح الآية : (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ) ، ولم يقل «بروح عَبْدِهِ» ، وعَبْدُه هو محمد رسول الله بروحه وجسده ، هذَا هو الدليل الأول .

والدليل الثانى ، هو الموقف الذى اتخذه الناس حين أخبرهم الرسول بخبر الإسراء والمعراج . فلو كان يحدثهم بأنه رأى رؤيا منامية ، أو بأن روحه قد سبحت فى ملكوت الله إلى أقصى الكون — لما كان فى ذلك غرابة تستنكر ، ونحن نحدث غيرنا أحياناً بأحلام تطير بنا فى الفضاء وتصعد بنا إلى القمر ،

(١) رواه البخارى .

وتجعلنا ملوكاً ، ومع ذلك لا يحمل أحد حديثنا على حقيقته ، وإنما يكون لذلك دلالة على خير أو شر يقع ، وليس فى ذلك غرابة أو منكر ، ولا يحدث بسببه تكذيب أو تصديق .

فموقف القوم من أخبار النبى صلى الله عليه وسلم بأمر الإسراء والمعراج أكبر دليل على أنه كان يحدثهم عن أمر وقع له بشخصه روحاً وجسداً . وهو ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ) قال : «هِىَ رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به إلى بيت المقدس »[1] .

وقد صدق الله ـ أيها المسلمون ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى هذه الليلة ما لم تره عين ، فلما جاء يخبر قومه بما رأى كانوا بين مصدق ومكذب ، صدقه أبو بكر رضى الله عنه ، فسمى من ذلك اليوم بالصديق ، وكذبه كثيرون ، ممن لم يتحملوا روعة الاختبار والفتنة حين تحدث النبى إليهم .

والحق أن من المعانى التى تتصل بهذا الحديث الخالد توقيته الغريب ، فقد كان الإسراء بعد أن ذهب الرسول إلى ثقيف يعرض عليهم الإسلام . وبعد أن صبر على أذى قريش ما يقرب من عشر سنين ، وظن أنه ربما يجد فى الطائف من ينصره ، بعدما ضاقت به الحال عقب وفاة عمه أبى طالب ، وزوجه خديجة رضى الله عنها ، فقابلوه أسوأ مقابلة ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يرمونه بالحجارة ، حتى دميت قدماه وبكى ، وحين خذلت ثقيف رسول الله وقع فى حيرة من أمره ، فكان الإسراء والمعراج تثبيتاً وطمأنة له ، أن القدرة الإلٰهية كلها تقف بجانبه ، وأن عناية الله أرحم من أن تتركه

(١) رواه البخارى .

ضحية للتآمر أو عرضة للانهيار ، مهما حدث من عناد المشركين ، فكأن قدرة الله تخاطبه فى رحلته قائلة : يا محمد ، سوف تجتاز الصعاب برعايتنا ورحمتنا ، كما تتخطى الأرض والسموات بقدرتنا وعنايتنا .

والمعنى الثانى فى الإسراء أنه ـ كما حدَّث القرآن ـ تمحيص للمؤمنين ، وغربلة لضعفاء الإيمان ، وتنقية للصفوف ، وهذا هو معنى « الفتنة » الواردة فى الآية الكريمة :

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ)[1] .

وقد كانت هذه التصفية الربانية لعناصر الضعف فى صفوف المؤمنين ضرورية ، استعداداً لما قدره الله بعدها من بدء مرحلة جديدة فى كفاح النبى وصحابته ، تبدأ بالهجرة ، وهى أعظم تضحية أقدم عليها المؤمنون جماعة ، وتثنّى بالجهاد ، وتنتهى بالنصر الكامل : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)[2] .

والمعنى الثالث أيها المسلمون هو ما يمكن أن نفيده من عظة الإسراء ، وأثره فى تربية المؤمنين ، وحسبنا أن نقرأ حديثه فى كتاب من كتب السنة لنطالع صوراً من الحقيقة ، ونرى مشاهد من المصير الذى ينتظر كل فرد فينا ، فمن عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها .

ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيتُ لَيْلَةَ أُسْرِى بى لما انْتَهَيتُ إلى السَّماءِ السَّابِعَة ، فنَظَرْتُ فَوْقِى ، فإذَا أنَا بِرَعْدٍ وبُرُوقٍ وصواعق ، قال : فأتيت على قوم بُطُونُهُم . كالبُيُوت فيها الحَيَّاتُ ، تُرَى من خَارِج بُطُونِهِمْ فقُلْت يَا جِبْرَيل : مَنْ

(١) سورة التوبة : ١٢٤ و ١٢٥ . (٢) سورة المائدة : ٣ .

هؤلاء . . ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا »[1].

هذه الصورة الرهيبة التى صور بها الحديث أكلة الربا قد ورد مثلها فى حق كثيرين من أهل العصيان ، فالمفطرون فى رمضان معلقون بعراقيبهم ، مشققة أشداقهم ، تسيل أشداقهم دماً . والزناة منتفخون منتنون ، كأن ريحهم المراحيض ، يأتيهم اللهب من أسفل منهم .

أيها المسلمون : لقد جسدت لنا ليلة الإسراء كل هذه الصور ، على لسان الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، قصداً إلى إصلاح المجتمع المسلم ، ومحاربة الأوضاع الفاسدة فيه ، ليصبح مجتمعاً مثالياً ، يقتدى به كل الناس فى سائر المجتمعات . ولا ريب أن هذه الصور مستمدة كذلك من تعبير القرآن نفسه ، الذى حبب إلينا الإيمان ، وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، وصوره أبشع تصوير ، فالمغتاب يأكل لحم أخيه ميتاً ، والذين يأكون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ، ومن قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً . لقد حضرت هذه الصور جميعاً أمام النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج .

أيها المسلمون : ليس هذا فحسب هو ما يتصل بتلك الليلة المباركة من المعانى ، وإنما نحاول أن نوجز الحديث ، لنعى أكبر قدر منه . وحسبنا من تلك الليلة أن الله اختارها ليفرض فيها على هذه الأمة فريضة الصلاة ، حين دنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من حضرة ذى الجلال ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ورأى من آيات ربه الكبرى ، وفى هذا المجال الربانى ، الذى

---

(١) رواه أحمد .

يفيض رحمة، وعظمة ، فرضت الصلاة على أمة محمد ، خمساً فى العدد ، وخمسين فى الأجر على ما حدثنا رسول الله .

فاتقوا الله أيها المسلمون ، وانتهزوا هذه الأيام المباركة ، لتقدموا لأنفسكم خيرًا ، ولتذكروا أنها كانت على عهد النبى أيام كفاح ، لم يذق خلاله طعم الراحة ، ولا ادخر وسعاً فى النصح لكم ، والعمل لإنقاذكم وإسعادكم ، دعاكم رسول الله ، وبين دعوته ، ورسم الطريق ، وخاض الحرب وغمراتها من أجل أن تصبحوا مسلمين ، فاحرصوا على إسلامكم ، لأنه أمل نبيكم ، ودعوته الخالدة إلى الناس كافة ، وإليكم خاصة ، والله يتولى توفيقنا إلى الخير ، وهدايتنا إلى سواء السبيل .

عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يُؤْمِنُ عبْدٌ حتَّى أكون أحبَّ إلَيْه منْ ولَده ، ووالده ، والنَّاس أجْمعينَ »[1] .

---

(١) رواه مسلم .

غزوة بدر الكبرى

الحمد لله القوى القادر ، العزيز الحكيم ، أحمده وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، ينصر المؤمنين بفضله ، ويؤيدهم بقوته ، ويمدهم بملائكته ، ما أخلصوا له النية ، وأقاموا له الدين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، سيد المجاهدين ، وإمام الشجعان المقاتلين ، صلى الله وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه ، الذين باعوا أنفسهم لله ، وقدموا أموالهم فداءً لدينه ، ونصرًا لدعوته ، ودفاعاً عن الحق ، فكانوا من المهتدين .

أما بعد ؛ فيقول الحق سبحانه فى كتابه الكريم : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ ، بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ، وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ ، وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)[1] .

أيها المسلمون : تمر بنا هذه الأيام ذكرى غزوة بدر الكبرى ، أول عملية حربية كبيرة خاض غمارها المسلمون بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد سبقتها فى الواقع عدة أعمال عسكرية صغيرة كان المقصود منها تدريب الصحابة ، وجس النبض ، واختبار الموقف فى نواح متفرقة من الجزيرة العربية ، وبخاصة حول المدينة ، غير أن غزوة بدر كانت البداية الحقيقية

---

(١) سورة آل عمران : من ١٢٣ إلى ١٢٦ .

للكفاح المسلح ، الذى خاضه المسلمون ضد أعداء الدعوة الإسلامية ، وليس يعنينا هنا أن نسرد عليكم تاريخ هذه الغزوة المباركة ، فأحداث هذا التاريخ يطول عرضها ، ولا شك أن المسلم الذى يرد المسجد ملم بعض الإلمام بتفاصيل هذه الأحداث ، لأنها جزء من بناء دينه المتين ، وفصل من فصول التاريخ العريق لأمتنا العربية الإسلامية المجيدة .

وإنما الذى يعنينا هو أن نقف بكم على المعالم البارزة فى ذلك التاريخ ، وهى المعالم التى تحمل فى طياتها دروساً فى الكفاح ، وعظات تفيدنا فى حاضرنا ، الذى هو نقطة انطلاق إلى مستقبلنا .

وأول درس نتلقاه من بدر هو الدرس الذى حدثنا عنه الله سبحانه فى قوله : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ) ، فهو يمتنّ على النبى وصحابته بنعمة النصر التى أنعم عليهم بها ، برغم أنهم لم يكونوا متهيئين له ، ولا أعدوا له عدته ، بل إنهم لم يكونوا على استعداد نفسى لخوض معركة ، بل لقد كانوا يتمنون ألا يلقوا حرباً ، ولا يخوضوا معركة ، وكان فريق منهم يكره ذلك كراهية شديدة ، وكل ما كانوا يريدون هو أن يظفروا بالغنيمة التى خرجوا فى مطاردتها . وذلك ما حدثتنا عنه الآيات الكريمة : (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ، يُجَادِلُونَكَ فِى الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ ، كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ . وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ . وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ، لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)[1] .

فموقف المسلمين قبل بدر كان موقف الاستضعاف والذلة ، إذ لم تكن

---

(١) سورة الأنفال من ٥ إلى ٨ .

قلوبهم متوحدة قبل المعركة حول هدف واحد ، ولم تكن عزائمهم مشحوذة لقتال العدو ، وهو موقف الذلة ، لأن عدتهم للمعركة لم تكن عدة حرب ، بل كانت عدة غارة على قافلة ، فإذا هم يواجهون بحرب لا مفر منها مع عدو مستعد غاية الاستعداد .

وكان الموقف محرجاً حين صرفوا عن هدفهم الأحب إلى قلوب أكثرهم ، فاتتهم القافلة وواجهتهم العاصفة ، كانوا يريدون غنيمة فإذا هم مطلوبون للبذل والتضحية .

وكان الموقف عصيباً حين نظروا إلى العدو الذى فاقهم عدداً ، حتى بلغ ثلاثة أضعاف عددهم وقد توافرت للعدو المؤنة ، والسلاح ، أى أن عناصر النصر ، من ناحية الحساب المادى كانت فى جانب المشركين ، على حين كان عكس ذلك فى جانب المسلمين .

وكان الموقف يفرض على قائد المعركة صلى الله عليه وسلم أن يعالج نواحى الضعف فى صفوفه ، قبل أن ينشب القتال ، وأول ثغرة واجهها كانت تحويل وجهتهم عن الغنيمة السهلة إلى خوض المعركة المقبلة ، ولم يلق القائد فى هذا التحويل صعوبة تذكر ، فسرعان ما استجابت نفوس المهاجرين والأنصار للوضع الطارئ الجديد ، حتى لقد بلغ الأمر قمة روعته فى كلمة سعد بن معاذ سيد الأنصار بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم : «قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهوداً ومواثيق على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أمرت ، ولعلك يا رسول الله خرجت لأمر فأحدث الله غيره ، فامض لما شئت ، وصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من مالنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه

معكَ ما تَخَلَّف منَّا رجُلٌ واحدٌ ، وما نَكْرَهُ أَنْ نَلْقَى عدُوَّنَا غَدًا ، إنَّا لَصُبُرٌ فى الْحرْب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، ولعلَّ الله أَنْ يُريكَ منَّا ما تَقَرُّ به عيْنُكَ ، فسِرْ بنا على بركة الله » .

بهذه الكلمات الحاسمة وضع سعد بن معاذ أرواح الأنصار بين يدى القائد ، الذى جمع جنوده ليوحد وجهتهم ، ويقوى جبهتهم . وقد تولى الله سبحانه دعم هذه الصفوف المؤمنة حين صدقت عزيمتها على مقاتلة أعدائه، فإذا بكل ما كان عامل ضعف وذلة أصبح مصدر قوة ونصر . فأما قلة عدد المؤمنين وكثرة عدد المشركين فقد تدخلت إرادة الله فى دعم القلة وتهوين شأن الكثرة ، حين أصبح اللقاء محتماً ، وعلى ذلك فمن المفيد أن يرى المشركون عدد المسلمين قليلا فيستهينوا بهم ، والاستهانة أول عوامل الانتكاس والهزيمة ، فأما المؤمنون فبرغم أنهم كانوا يعلمون أن أعداءهم كثرة ، فإن الله جلت حكمته قد خيل إليهم أن هذه الكثرة قليلة الشأن ، طائشة الوزن ، تافهة الأثر ، لأن عشرين صابرين يغلبون مائتين ، ومائة صابرة يغلبون ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون .

وهكذا صورت لنا الآية الكريمة حل مشكلة العدد فى قوله تعالى : (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ، وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا)[1] .

وأما مشكلة السلاح فأمرها أهون من ذلك ، متى صح عزم المؤمن على منازلة عدوه ، ومتى كان هدفه أن يموت شهيدًا فى سبيل الله ورسالته . لقد كان السلاح الماضى هو الإيمان المكين ، واليقين الثابت فى نصر الله ، والصبر

---

(١) سورة الأنفال : ٤٤ .

على قساوة الصراع ، وتلك هى العوامل التى تقف من وراء إمداد الله للمؤمنين بجنده الذى لا يغلب : (بَلَى ، إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا . . وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ، وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ ، وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا النَّصرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)[1].

ولعلنا نزداد تصوراً وفهماً لهذا الموقف الذى كان عليه المؤمنون حين نذكر دعاء الرسول ساعة الزحف ، وهو يناجى ربه ، ويلح عليه : « اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذه العصَابَة لَا تُعْبَدُ بَعْدَهَا فى الْأَرْضِ ، اللَّهُمَّ أَنْجِزْ ما وَعَدْتَ ، اللَّهم إِنَّهُمْ حُفَاةٌ فاحْمِلْهُم ، وعُرَاة فاكْسُهُمْ ، وَجياع فأَشْبعهم ، وَعَالَة فَأَغْنِهِمْ مِنْ فَضْلك » ، ولم يكن هذا التوجه إلى الله شأن النبى القائد وحده ، بل كانت دعوات الاستغاثة متصاعدة إلى عنان السماء ، تجأر إلى الله تناشده النصر والتأييد ، وهو دعاء لا يمكن أن يردّ بحال ، بل إن الاستجابة له كانت أسرع مما تصور الداعون ، وهو قوله تعالى : (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ) .

لقد تبدلت الحال بعد توحد العزائم على القتال ، فازداد المؤمنون توجهاً إلى الله ، وتشبثاً بصدق الوجهة ، وحرصاً على الموت من أجل الدعوة ، على حين تراخت عزائم المشركين حين استهانوا بالمؤمنين ،وزادهم البطر والرياء ضعفاً على ضعف ، كما (زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ : لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ) ، فامتلأوا غروراً ، وتلك هى المقدمات الطبيعية للهزيمة ، التى ذاقوا ويلاتها على يد المؤمنين ، فأشبعوهم قتلا وأسرًا وإذلالا. وهكذا ـ أيها المسلمون ـ ذاق أصحاب نبيكم حلاوة النصر فى أول معركة وعاينوا النتيجة العملية لإيمانهم بالنبى وانتصارهم له . فهذا هو الدرس الأول من

(١) سورة آل عمران : ١٢٥ و ١٢٦ .

دروس غزوة بدر الكبرى .

والدرس الثانى أن بدراً قد وضعت الإيمان والكفر وجهاً لوجه ، فأحس المؤمنون أن الأمر لم يعد يحتمل مساومة أو مطلا ، وأنه لا سلام مع وجود الكفر فى جزيرة العرب ، وقد آن للإيمان أن يدخل أول امتحان عملى يؤكد أصالته ، فإن إيمان المؤمنين كان حتى قبيل غزوة بدر اقتناعاً نظرياً بمعانى الغيب وقيمه ، وكانت بدر بما عاينوا فيها من تأييد الله أعظم تأكيد لدور الغيب فى حياة المؤمنين ، وفى اقتناعهم . لم يعد الغيب سراً أو تسليماً ، بل صار ملائكة تهبط من السماء إلى الأرض ، ونصراً لا تضمنه أسباب الدنيا ، وإنما تصنعه أقدار الغيب الذى به يؤمنون ، ولهذا يخاطبهم الله سبحانه بهذا القول الحاسم ، بعد أن صور لهم ذاتهم وعجزهم : (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ، ولَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى ، ولِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)[1] .

والدرس الثالث الذى نفيده من بدر أنها كانت فاتحة مرحلة جديدة من عمر الدعوة الإسلامية ، وهى مرحلة الكفاح المسلح ضد الشرك المسلح ، وهى مرحلة لم تبدأ إلا بعد أن استنفد النبى فى دعوة المشركين إلى الإيمان بالله كل وسائل الحكمة والموعظة الحسنة ، وقد صبر على دعوتهم وإيذائهم خمس عشرة سنة ، منها ثلاث عشرة فى مكة وسنتان بالمدينة ، ولاريب أننا جميعاً نذكر صنوف العذاب التى لقيها هو وصحابته والتى فرضت عليهم أن يغادروا مكة إلى الحبشة مرتين ، ثم ختمت بتلك المؤامرة التى دبروها بليل لقتل الدعوة وصاحبها ، فكانت الهجرة إيذاناً بتغير الأسلوب فى مواجهة الشرك ،

(١) سورة الأنفال : ١٧ و ١٨ .

لا بد من موقع جديد ، يتم فيه عمل جديد ، دفاعاً عن الدين المضطهد ، ودفاعاً عن المؤمنين المستضعفين ، فكانت بدر تسجيلا فى الواقع للإذن الوارد فى قوله تعالى : (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ)(١).

أيها المسلمون . . . إن دروس بدر يطول فى بسطها الحديث ، فالشورى بين القائد وجنوده كانت من أحداث هذه الغزوة ، ونظام الأسر والفداء وضع فى نهايتها ، وأعمال الاستكشافات والرصد لخطط العدو كانت من بين أحداثها ، وهذه كلها أمور ما زالت تجرى بين الأمم المختلفة والقوى المتصارعة ، غير أن تعاليم الإسلام التى انبثقت عن تلك الغزوة كانت دائماً أرقى ما بلغته النظم الإنسانية فى مشكلات الحرب والسلام .

فيا أيها المسلمون . . اذكروا هذه الدروس التاريخية المجيدة ، وهذه العظات البالغة العميقة ، فيما كانت عليه مواقف نبيكم صلى الله عليه وسلم وصحابته ، واذكروا دائماً أن الأحداث التى حاولنا وصفها من واقع النصوص القرآنية هى صورة لما يقع الآن بين الضعفاء والأقوياء ، بين قوى الشر والبغى ، وقوى الخير والتقدم ، وليس لنا من سلاح فى هذه المعركة الضارية إلا ما تسلح به النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته ، من إيمان بالله لا يتزعزع ، وصبر على المكاره لا ينفد ، وعزم على المواجهة لا يلين ، وتصميم على النصر مهما كلف من ثمن ، وهذه كلها كانت المقدمات التى تنزَّل بها نصر الله على عباده المؤمنين ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رِبَاطُ يوْمٍ فى سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ من الدُّنْيا وَمَا عَلَيْهَا ، ومَوْضعُ سَوْطِ أحدِكُمْ منَ

(١) سورة الحج : ٣٩ و ٤٠ .

الْجنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنيا وما علَيْها ، والرَّوْحَةُ يرُوحُهَا الْعبْدُ فى سَبِيلِ اللهِ أَو الْغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وَمَا علَيْهَا »[1] .

وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سأَل الله تعالى الشَّهَادةَ بِصِدْقٍ بلَّغَهُ اللهُ مَنازِلَ الشُّهداءِ ، وإِنْ ماتَ على فِرَاشِهِ »[2] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه .

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

فتح مكة

الحمد لله يؤيد بنصره المخلصين ، ويحق الحق بكلماته ويقطع دابر المبطلين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولىّ الَّذِينَ آمَنُوا يَهْدِيهِمْ إلى صراط مستقيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، جاهد فى الله حتى أتاه اليقين . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، جند الحق وحزب الإيمان ـ وأولئك من الصالحين .

يقول الله تعالى : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)[1] .

عباد الله : شاء الله سبحانه أن تكون الحياة ميداناً للصراع بين الحق والباطل ، والخير والشر . والإنسان هو ذلك الكائن الذى تتجاذبه القوتان : قوة الحق والخير تسمو به عن التردد فى حمأة الرذيلة . والوقوع فى شباك الهوى والمعصية ، وقوة الباطل والشر تنزع به إلى تلبية نداء الغريزة ، وتخلد به إلى الأرض . وتقوده إلى كل ما يشبع نهمها . ويطئ ظمأها من أجل ذلك وقفت جموع الشر تلاحق ركب الخير ، وتتقفى أثره فى حرب أكلت الأخضر واليابس ، ولم ترحم الشيخ الكبير ولا الطفل الصغير . وسارت الأرض بمن عليها . واستبد الفزع بأهلها حتى شاء الله لهذه الأرض أن تشرف ببعثة أكرم الخلق صلى الله عليه وسلم يقيم فى الناس موازين العدل ، ويقضى بينهم بالقسط . يومئذ تنكرت الدنيا له ، وقعد الباطل له كل مرصد ، وتربص به والمؤمنين معه الدوائر . حتى أخرجوا جميعاً من مكة بغير حق إلا أن يقولوا

---

(١) سورة الصافات : ١٧١ و ١٧٢ و ١٧٣ .

ربنا الله ، وكان قتال بين جند الله وحزب الشيطان . مضت فيه سنة الله فى قوله : (وتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) فلقد كان النصر حينًا إلى جانب الحق وفى حين آخر يمتحن المؤمنون بالابتلاء بما لا يحبون : (لِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ويَمْحَقَ الْكَافِرِين) حتى رأى صلى الله عليه وسلم أنه دخل البيت الحرام وصادف ذلك فى نفسه هوى إلى زيارة بيت الله المحرم بعد طول فراق . فأسرع يدعو أصحابه إلى زيارته معتمرين ، وكم فرح المسلمون بهذه البشارة التى وافقت رغبة ملحّة بين جوانحهم ، وما كان للباطل أن يهادن فى خصومته ، فشيمته البغى والعداء والظلم والاستعلاء . لذا فقد كشف عن طويته . ووقف المبطلون من قريش بين رسول الله وصحبه وبين تحقيق هذه الرغبة التى لاحت فى الأفق أمارتها ، وبدت أمام أبصارهم صورتها ، وهبت عليهم نسماتها ، وبدا شبح الحرب يملأ البقاع المحرّمة بالدمار والأشلاء . والمسلمون ما خرجوا إلى مكة إلا عبادًا مخبتين . لا غزاة منتقمين ، وما ينبغى لأهل مكة أن يلجئوهم إلى ذلك أبدًا . وهنا يقول الرسول الكريم : «ياويح قريش لقد أكلتهم الحرب وماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة » .

لكنه رغبة فى السلم ، وتعظيماً للبيت الحرام أن ينتهك حماه ، استجاب لرغبة قريش .

ولأول مرة يعترف الباطل بالوجود الإسلامى ، وتلتزم له قريش بما لم تكن من قبل تطيق أن تمنحه منه قليلا ولا كثيرًا . ومن خلال هذه المعاهدة استطاع رسل الإسلام أن يحملوا دعوته إلى آفاق كثيرة ، وقرَّ المسلمون

آمنين وقتاً من الزمن استطاعوا فيه أن يجمعوا شملهم ، وأن يستردوا ما فقدوا من قوة فى سالف أيامهم ، ويأبى الله إلا أن يكشف عن زيف الباطل والمبطلين . حين نكثت قريش العهد ، وتنكرت لما بينهم وبين الرسول من عقد ، ونقضت بيدها ما التزمت به ، وهجمت على حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بمساندة أعدائهم وكان على قريش ألا تعتدى على مسلم ولا على من دخل فى عهد المسلمين . وهنا كان لا بد للحق – وهو الذى لايرضى الدنية ولا يقبل الضيم – أن ينتصر للمغلوبين ، وأن يأخذ بحق المظلومين . فخرج صلى الله عليه وسلم فى جيش قوى وجهته مكة ، ليؤدب أهلها ، ويضرب على يد البغاة من أبنائها ، لقد أعلم رسول الله أصحابه أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال: « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها » . واستمع المسلمون لأمر النبى صلى الله عليه وسلم. فمضوا يعبئون قواهم للقاء المنتظر وهم مدركون أن الساعة الفاصلة مع أهل مكة قد دنت ، وسار الجيش يطوى الوهاد والأنجاد إلى مكة حتى بلغ حر الظهران قريباً منها . لقد أصبحت أم القرى وقد قيد الرعب حركتها واستسلمت للقدر المنساق إليها . على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته ، وقد انحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجم حتى كاد يمس واسطة الرحل اعترافاً بفضل الله ، ودخلها مع أصحابه دخول الظافرين المنتصرين .

وشاء الله لهذا البلد الذى شهد محمداً وأصحابه وهم يسامون العذاب ، ويُرمَوْن بما لا قبل للدنيا باحتماله – أن يرى محمداً صلى الله عليه وسلم يتقدم المسلمين دون أن يرى مقاومة تذكر من هؤلاء المشركين ، الذين كانوا بالأمس لا يطيقونه ، ولا يطيقون أحداً من أصحابه يمشى على الأرض مطمئناً ، شهد

الأصنام وهى تمتهن وتحطم وتوطأ بالأقدام ، شهد القوم الذين انتفخت أرواحهم بالكبر والغطرسة وهم يطأطئون رءوسهم وينتظرون بين يدى رسول الله مصيرهم ، كما شهدت الكعبة المؤمنين الذين كانوا لا يستطيعون الاستقرار بجانبها ، أو الاطمئنان من حولها أو الصلاة إليها يطوفون ، ويصلون ، ويذكرون الله ، ويدعون وهم آمنون مطمئنون ، وأهل مكة ينظرون إليهم ولا يكادون ينطقون . لقد شهد هذا البلد (مكة) بلالا الحبشى ، وهو الإنسان الذى طالما أهين ، وعذب ، وسحب على وجهه فى حر الظهيرة ، وسلط عليه الأطفال والصبيان يضربونه ويسبونه – وقد أعزه الإسلام ، وبوأه المسلمون مكان الصدارة منهم ، واختاره النبى صلى الله عليه وسلم ليصعد فوق الكعبة معلناً عقيدة التوحيد لله رب العالمين ، فى أذانه للصلاة : الله أكبر ، الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . . .

وهكذا . فتحت مكة أبوابها ، واستسلم سادتها وكبراؤها ، وعلت كلمة الله فى جنباتها ، ونادى صلى الله عليه وسلم وهو يحطم الأوثان التى ضل أهل مكة بها : (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)(١).

لقد علت كلمة التوحيد ، وسقط الشركاء ، وارتفع صوت الحق وتردد فى شعاب مكة وفى أوديتها صداه ، ومكن الله لنبيه ، وملكه الزمام ، وأدى المؤمنون شعائر دينهم فى أمن وطمأنينة وسلام . لقد استطاع محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه بفتح مكه أن يعيدوا للبيت الحرام أمنه وسلامه وأن يعظموا حرمات الله وشعائره ، وأن ييسروا للناس حجه وزيارته ، وأن يطهروه للطائفين والقائمين والركّع السجود ، كما استطاع أن يؤمن ظهره ، فانطلقت كتائب الإيمان باسم الله تنشر الحق ، وترفع رايته ، وتمكن للمبادئ فى

(١) سورة الإسراء : ٨١ .

الأرض ، وتعلى منارها وصدق الله وعده المؤمنين حين قال : (وَنُرِيدُ أَن نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)[1] .

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه بعد ذلك كله ، وبعد ما لاقى هو وأصحابه من طغيان قريش وجبروتها ، فى حلٍّ من أن يأخذ بالثأر ، ويأخذ بحق أولئك الذين أخرجوا من هذا البلد ظلماً وعدواناً ، وصودرت أموالهم واحتلت ديارهم ، ولكنه ضرب للدنيا أكرم المثل حين توج ذلك النصر العظيم بالعفو عمن ظلمه ، والصفح عمن أجرم فى حقه وفى حق صحبه ، والإحسان إلى الذين لم يدخروا وسعاً فى الإضرار به حتى بعد هجرته. لقد أقبل على قريش وهم صفوف يرقبون قضاء الله فيهم فأمسك بعضادتى الباب- باب الكعبة- وهم تحته فقال: « لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . ثم قال يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية : (يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) ثم قال لهم يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء[2] . وفى يوم الفتح ويوم النصر ترجع بنا الذكريات إلى رجال لم يشهدوا هذا النصر المبين وقد تمنوه وعملوا له ، ولم يستمعوا لصوت بلال وهو يردد فوق الكعبة شعار التوحيد ، ولم يروا الأصنام وقد كبت على وجوهها وسويت بالزعام. كما لم يروا عبادها الأقدمين وقد ألقوا السلم واتجهوا إلى الإسلام ، لقد قتل هؤلاء الرجال وماتوا بأيد المعركة التى نشبت طويلا بين الكفر والإيمان . ولكن النصر الذى يجنى ثماره الأحياء

---

(١) سورة القصص : ٥ .

(٢) كتب السير المعتمدة .

لهم فيه نصيب كبير . وجزاؤهم عليه مكفول عند الله الذى لا يظلم مثقال ذرة : (وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً) .

والقرآن الكريم ينبه إلى أن المعول فى الحساب الكامل على الدار الآخرة ، فهناك الجزاءُ الأوفى للمؤمنين وغير المؤمنين ، ورب العزة تبارك وتعالى يقول : (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ).

أيها المؤمنون : شاءَ الله جلت قدرته أن يكون طريق الحق فى الدنيا مفروشاً بالأشواك ، مليئاً بالعقبات ، كما سبقت كلمته أنه مهما طال الأمد على طغيان الباطل وبطشه فإن العاقبة للتقوى . لكل ذلك فإن على الذين يدعون إلى الحق أن يوطنوا النفس على البذل والتضحية واحتمال المكاره وتقبل البلاء بنفس مطمئنة راضية ، حتى تبلغ الأمور غايتها ، ويقضى الله فى الباطل قضاءه ، وتعلو راية الحق خفاقة فى العالمين . وعليهم أن يتأسوا بدعاة الخير والمصلحين من الأنبياء والمرسلين ، أولئك الذين يحكى الله عنهم فى كتابه : (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِىٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)[1] .

فإذا كانت دولة الباطل فى مكة قد ظلت وقتاً ليس بالقليل ، فإن قوة الحق لا بد لها من يوم تضرب فيه الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق ، ويكون الويل للمبطلين .

إن على الدعاة والمصلحين ، وأصحاب المبادئ ألا ييأسوا بما يلاقونه من عنت فى محيط قومهم ، فتلك سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . وإذا كنا اليوم فى معركة المصير نكافح ونناضل ، فلنتسلح

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٦ .

بسلاح الإيمان ، ولنتدرع بدروع الصبر والتضحية والفداء ، ولنطهر أنفسنا من كل ما يغضب بارئ الأرض والسماء ، ويومئذ نكون أهلا لنصر الله الذى ينصر من يشاءُ .

وإذا كان لنا أن نتعلم من هذا الدرس فإن علينا أن نعلم أن الحرب خدعة ، وأن الوفاءَ بالعهد فريضة ، والعفو عند المقدرة كرم وفضيلة ، والانتصار للحق شجاعة ورجولة ، فاتقوا الله عباد الله واهتدوا بهدى نبيكم ، وتأسوا بحميد سيرته ، وجميل خصاله ، وتعلموا منها ما يصلح شأنكم فى دينكم ودنياكم وآخرتكم ، واذكروا قول الله عز وجل : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا)[1].

وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون .

قال صلى الله عليه وسلم :

« لا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهادٌ ونِيَّة وإذا استنفرتم فانفروا »[2] .

---

(١) سورة الأحزاب : ٢١ .

(٢) رواه البخارى .

ليلة القدر

الحمد لله رب العالمين . خلق الخلق ورفع بعضهم فوق بعض درجات . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فاضل بين الأيام والليالى – واختص بعضها بالمزيد من التكريم على سائر الأوقات ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، شرفه ربه بكتابه الكريم ، وأنزله عليه فى ليلة اختصها بالمزيد من الفضل والشرف والتكريم .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والمتبعين لسنته ، المهتدين بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد : فيقول الله عز وجل : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ . تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ . سَلَامٌ هِىَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)[1] .

أيها المسلمون سبقت كلمة الله فى خلقه أن فاضل بينهم ورفع بعضهم فوق بعض درجات سواء فى ذلك الزمان والمكان الإنسان . وكان مقتضى ذلك أن فضل الله بعض بنى الإنسان على بعضهم الآخر – (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَات) وفضل بعض الأمكنة على بعض قال تعالى :(فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) وكان المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد المدينة أشرف المساجد . وكذا فضل بعض الأزمنة على بعض . ويعنينا منها ذلك الشهر العظيم (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدًى للنَّاسِ ، وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى والفُرْقَانِ) .

---

(١) سورة القدر .

خصوصاً منه تلك الليلة الفريدة على الدهر الخالدة الذكر. والحديث عن ليلة القدر ليأخذنا إلى حيث الليل الساكن الخاشع ، حين كان صلى الله عليه وسلم يتحنث فى غار حراء وهو وحيد يستلهم ربه الرشد ، ويرجوه الهدى ، وحين نزل الوحى عليه وهو فى خلوته : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ...) الآيات .

وحين خرج صلى الله عليه وسلم على قومه بهذا التنزيل يشعرهم بفضل الله عليهم وجميل إحسانه ومنه إليهم ، فأعرضوا عنه ورموه بالسحر تارة ، وبالكهانة أخرى ، يؤكد الحق لنبيه صدق رسالته فيقول : (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)(١) ، ويقول : (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)(٢) . ويتنزل القرآن يؤكد هذه الحقيقة . روى الحاكم والبيهقى بسندهما إلى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « أُنزل القرآن فى ليلة القدر جملة واحدة إلى سماء الدنيا وكان بمواقع النجوم . وكان الله ينزلُ على رسوله بعضه فى إثر بعض » . وفى الأثر عن ابن عباس أيضاً فصل القرآن من الذكر فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم نزل به جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم منجماً ومفرقاً على حسب الظروف والأحوال قال تعالى : (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) وقال سبحانه : (وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً) ولقد ابتدأ نزوله فى هذه الليلة المباركة ثم تتابع الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم من فرط ما يشعر بحلاوته وخوف أن يتفلت منه شىء يحرك لسانه مستعملاً حفظه فقال سبحانه : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ

---

(١) سورة القلم : ١ و ٢ .

(٢) سورة النجم : ١ و ٢ و ٣ .

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ). كما تعهده سبحانه بالحفظ: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وتنزل سورة الدخان فتذكر الليلة التى نزل فيها بالبركة، يقول سبحانه: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ)[1]. إلى جانب هذه السورة ينزل قوله سبحانه: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)[2]. وفيما بين هذا وذاك تجىء سورة القدر، وتذكر هذه الليلة وتخلع عليها صفة القدر والشرف التى هى صفة القرآن، قال تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ).

أيها المسلمون: لقد نزل القرآن فى شهر رمضان وفى ليلة مباركة كما جاء فى سورة الدخان، وهى ليلة القدر التى شرفها الله سبحانه بإنزال القرآن فيها، ونسبته فى إنزاله إلى الله عز وجل يشعر بعظمة المنزَّل: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ).

ثم يعقب الله بعد ذلك بما يشعر بعظمة هذه الليلة، وما أعده من جزاء لمن أقامها، واحتفاء الملائكة بهذا الكرم الربانى حين يقول: (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ. سَلَامٌ هِىَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ).

لقد أولى الله قُوَّام هذه الليلة بشرف القرب منه، والعفو عما صدر منهم؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَاناً واحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[3]. ومن ثم فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حفيًّا بمعرفتها وتحديدها، حتى لا يفوت شرف إحيائها أمته. فعن عائشة رضى الله عنها قالت: «تَحَرَّوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فى الْوِتْرِ مِنَ الْعَشْرِ

---

(١) سورة الدخان: ٤.
(٢) سورة البقرة ١٥٨.
(٣) رواه البخارى وغيره.

الأَواخِرِ مِنْ رَمَضَان » . ولقد سألت عائشة رضى الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عما تدعو به ، إذا أدركتها ، فقال لها : قولى « اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فاعفُ عَنِّى »[1] .

ولقد أخفى الله هذه الليلة فى العشر الأخير حفزًا للهمم إلى الاستزادة من الخير ، ولكيلا تتواكل وتنصرف إلى الانتظار لوقتها إذا كانت محددة ، فيفوتها بذلك الثواب الجزيل ، والخير الكثير . . . كما قال تعالى : ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2] .

وإذا كانت ليلة القدر قد شرفت بنزول القرآن فيها . فكيف بمن نزل القرآن لأجلهم ، واحتوته صدورهم ، وتخلقوا به فى أقوالهم وأفعالهم وسلوكهم ، إنهم به أفضل الخلق ، وأعلاهم عند الله درجة . وإنا نتساءل : أيكون ذلك الشرف لمن يحمله فقط. كتاباً يتلى ، وتتخذ منه التمائم والرقى ، أو لمن يجعلونه فى الحياة دليلهم ومرشدهم ، وهاديهم وقائدهم إلى ما يصلح شأنهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم . ولقد نعى الله على اليهود ، فقال فى شأنهم حين حملوا التوراة ثم لم يعملوا بها : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3] .

ومعنى ذلك أنهم حفظوا لفظها ، ولم يتفهموا معناها ، ولم يعملوا بمقتضاها.

نحن أمة القرآن ، ومجد هذه الأُمة إنما هو فى كتابها ، ذلك الكتاب الذى ربط بين جميع المسلمين ، وكان دستورهم فى شئون دنياهم ودينهم ، والروح الذى أحيا مَوات، أفئدتهم ، وأزال الغشاوة عن قلوبهم ، والنور الذى أضاء لهم الطريق ، وسلكوا به سبيل الهدى والرشاد : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ

---

(١) رواه الترمذى (٢) سورة السجدة : ١٧ . (٣) سورة الجمعة : ٥ .

بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِيناً)[١] .

إن لكل دعوة من الدعوات كتاباً يدعو لها ، ولساناً يعبر عنها ، ويوضح أهدافها ، وينشر مبادئها ، والقرآن كتاب الإسلام ، نزل به الروح الأمين ، بلسان عربي مبين ، إنه شرف رباني قلده الله هذه الأمة وكان مبعث عزها وفخرها ، والتاريخ يحدثنا أن أمة الإسلام عزت وانتصرت يوم اعتزت بالقرآن واتخذته إمامها ، ولاذت به ، وحكمته فيما شجر بينها ؛ ففى عصر الخلفاء الراشدين وفى خلافة الأمويين ، والعصر الذهبي لخلافة العباسيين . حين كان القرآن وله فى القلوب مكانة ، وعلى سلوك الناس وتصرفاتهم سلطانه ، كانت هذه الأمة عزيزة الأركان ، متينة البنيان ، تخطب الدنيا ودها ، وترجو رفدها وعونها ، وتخشى بأسها وتؤمل خيرها . إنه – أيها المسلمون – المخرج من كل فتنة ، والملجأ فى كل شدة ، والسعادة فى تعاليمه لمن أراد السعادة الحقة ، إنه ذلك الكتاب الذى استطاع أن يحطم الحواجز ، وأن يمزق الحجب عبر التاريخ ، جياشاً بكل معانى الحياة ، قويًا يأخذ بأيدى الضعفاء حتى يبلغ بهم ذروة المجد ومنتهاه .

عن الحارث الأعور عن عليّ كرم الله وجهه ، قال : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ألا إنَّهَا ستكونُ فتْنَةٌ ، فقلت : ما المَخْرجُ منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نَبأُ ما قَبْلَكُمْ ، وخَبَرُ مَا بَعْدكُمْ ، وحُكْمُ ما بَيْنَكُم ، وهو الفَصْلُ ليس بالْهَزْل ، منَ تَركهُ من جبَّارٍ قَصمهُ اللهُ ، ومن ابْتَغَى الْهُدى فى غَيْره أَضلَّهُ اللهُ ، وهو حبْلُ الله المتينُ ، وهو الذِّكْرُ الْحكيمُ ، وهو الصِّراطُ الْمُسْتقِيمُ ، وهو الذى لا تزيغُ به الْأَهْواءُ ، ولا تَلْتَبِسُ به الْأَلْسنَةُ ، ولا يشْبعُ مِنهُ الْعُلماءُ ، ولا يخْلَقُ على كَثْرةِ الرّد ، ولا تَنْقَضى عجائِبُه»[٢] .

---

(١) سورة النساء : ١٧٤ . (٢) رواه البخارى ومسلم .

فإذا كانت ليلة القدر ، وهى الليلة التى قد شرفها الله بإنزال هذا الكتاب الكريم فيها . فإن حقًّا على المسلمين ، أن يغتنموا لحظاتها ، وأن يتجروا ميقاتها ، متأسين بهدى أكرم الخلق صلوات الله عليه ، وهو يستعد لها .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا دخَل الْعشْرُ الأَخيرُ شَدَّ مِئْزَره ، وأَحْيا لَيْلَهُ . وأَيْقَظَ أَهْلَهُ »(١) .

إن التاريخ يحدثنا أن أمة الإسلام عزَّتْ وانتصرت بالقرآن ، وكان له فى القلوب مكانة ، وعلى سلوك الناس وتصرفاتهم سلطان ، ويوم نأت بجانبها عن مصدر عزها ، واتبعت الهدى فى غير كتاب ربها ، أوردها الله موارد الردى ، وأحلها دار البوار ، وصدق فيها قوله صلى الله عليه وسلم : « تُوشكُ أَن تَداعى علَيْكُمْ الْأُمَمُ كَما تَداعى الْأَكَلَةُ إلى قَصْعتِهَا ، فقالوا : أَوَ منْ قلَّةٍ نَحْنُ يا رسُولَ الله ؟ قال : بل أَنتم يوْمئذٍ كَثِيرٌ ، ولكنكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْل ، ولينزعنَّ اللهُ الْمهَابَة منْ قُلُوبِ أَعْدائكُمْ ، ولَيُلْقيَنَّ فى قُلوبكمُ الْوهن . قالوا : وما الْوهنُ يا رسُول الله ؟ قال : حُبّ الدُّنْيا وكَراهيةُ الْموْت »(٢) .

إن هذا الكتاب الذى صنع بالأمس الأبطال ، وربَّى الرجال ، وأقام حضارة ، وأحيا أمة ، لَيهيب بنا أن نعود إليه ، وأن ننهل من ورده ، ونتلمس وسائل النصر فى رياضه ، ويومئذ نصبح وليس على ظهر الأرض من هو أعظم قوة ، وأحق بالحياة منا ، إنه صمام الأمان لنا وللأجيال المتعاقبة من أن يجرفها تيار الهوى أو تسيطر عليها الآراء الزائفة .

أيها المسلمون : إذا كان قد أتى على هذه الأمة حين من الدهر انحرفت فيه عن تعاليم قرآنها ، فإنها اليوم بفضل الله قادرة على توجيه سلوكها ،

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه الترمذى .

وأمورُها بيدها ، وإن عليها أن تعلم أن بقاءها وقوتها ، وعزها ومجدها إنما هو فى كتابها .

أيها المسلمون : تحت راية القرآن فامضوا ، وبهديه فلتعملوا ، وصراطه المستقيم فاتبعوا ، تكونوا أهلا لنصر الله الذى ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ هذَا الشَّهْرَ قَدْ حضَركم ، وفيه لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ منْ حُرِمها فَقَدْ حُرِمَ الْخَيْرَ كُلَّه ولا يُحْرَمُ خَيْرها إلاَّ مَحْرُومٌ »[1].

وقالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد فى رمضان ما لا يجتهد فى غيره . وفى العشر الأواخر ما لا يجتهد فى غيرها »[2] .

---

(١) رواه ابن ماجه .

(٢) رواه مسلم .

الإسلام إيمان وعمل

الحمد لله ، الذى أكمل لنا ديننا ، وأتم علينا نعمته ورضى لنا الإسلام دينًا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كتب العزة لمن اعتز به ، واستمد نصره منه ، وسعى فى مناكب الأرض ، يعمل فيها بجد ونشاط ، وامتثالا لأمر ربه الذى يقول :

(فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ ، وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(١) .

وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله ، بعثه الله هادياً إلى الحق ، وداعياً إليه ومجاهدًا فى سبيله ، وأرشده إلى أن يعمل لدنياه ، كما يعمل لأخراه ، وأن يعلّم أمته أن العمل الصّالح طريق السعادة والفوز المبين : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)(٢).

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، الذين أسلموا وجوههم لله فى كل حال ، وأحسنوا فى جميع الأعمال ، وتمسكوا بكتاب ربهم فوفاهم أجورهم ، ورفع أقدارهم : (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)(٣) .

أما بعد ؛ فيا عباد الله :

إن كل دعوة من الدعوات ، تعتمد على دعامتين رئيسيتين ، وركيزتين قويتين ، تنهض عليهما ، وتنتشر فى ظلالهما ، هاتان الدعامتان هما : الإيمان ، والعمل الصالح . . والإسلام اعتمد على هاتين الركيزتين ، فقبل

(١) سورة الجمعة : ١٠ . (٢) سورة فصلت : ٤٦ . (٣) سورة الأعراف : ١٧٠ .

مشرق الإسلام ، عاشت الأُمة العربية زمناً سادت فيه مفاهيم خاطئة ، واختلت فيه موازين الحياة الفاضلة ، واختلفت أفكارها وأهدافها ، فقد كانت العلاقات الاجتماعية حينئذ قائمة على السيطرة والاستعلاء والطبقية الممقوتة ، طبقة السادة الذين يستغلون غيرهم ، وطبقة المغلوبين على أمرهم ، وكانت العصبية القبلية هى التى تحكم علاقات الناس .

ووسط هذه التناقضات ، أرسل الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، فقام يدعو إلى تغيير هذا الواقع الفاسد ، واتخذ من إرادة هذا التغيير منطلقاً لبناء الأُمة الجديدة ، وبدأ بإرساء قاعدة الإيمان بالله رب العالمين ، فلا يتجه الإنسان بعبادته إلى مخلوقات لا تنفع ولا تضر ، إنما الولاء كله للخالق القادر ، وهتف فيهم بهذا التوجيه الكريم (ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)[1]

ولم يستسلم هؤلاء المعوقون لسير الدعوة الإسلامية ، فلجأُوا إلى كل ألوان الضغط ، وأعلنوها حرباً لتجويع الرسول ومن معه ، فتعاهدوا على ألا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، وتحالفوا على ذلك حلفاً ظالماً ، أملاه عليهم حقدهم ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة ، وظلوا على هذا النحو ثلاث سنوات ، لا يصلهم فيها شىء من الطعام إلا خفية ، وجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر ، ولم يستسلموا لدعاة الباطل ، لأن الإيمان كان يملأُ قلوبهم ، ويحفزهم إلى مواجهة التحدى ، ويهتف بهم أن يثبتوا على المبادئ القويمة حتى يمكن الله لهم فى الأرض ، ويبدِّلهم من بعد ضعفهم قوة ، ومن بعد قلتهم كثرة ، ومن خوفهم أمناً وسلاماً : (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٢ .

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً)[1].

ولم يكتف الإسلام من أبنائه أن يستمسكوا بعقيدتهم ، وأن يحرصوا على إيمانهم فحسب ، من غير أن يكون لذلك واقع عملى ، بل نراه يؤكد قيمة العمل ، ويعدّه عبادة ، يتفاضل الناس به ، ويجزون على أساس منه : (وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ، (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى)[2].

ويعدّ العمل حقًّا وشرفاً ، وواجباً وحياة ، ويكره أشد ما يكره الفارغين المتعطلين ، الذين يعيشون على عرق غيرهم ، وعلى كد سواهم ، وحينما شد رسول الله على يد عامل ورمتْ من كثرة العمل ، قال له : « هذه يد يحبها الله ويحبها رسوله » — إنما كان ينبه إلى منزلة العمل فى الإسلام . وإلى فضل السعى فى الأرض ، ابتغاء الرزق ، وحينما استمع المسلمون إلى قوله تعالى : (فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[3] انطلق الواحد منهم ولم يدع سهلا ، ولا جبلا ، ولا وادياً ، ولا عامرًا ، ولا مجدباً ، ولا مخصباً إلا وقد تحصن بإسلامه ، ثم اقتحمه وعمل فيه بيده ، وأجرى الخير فى جنباته ، وأطلع السعادة فى آفاقه ، والدين لم يضيق من حدود النشاط الإسلامى ، ولم يصغر من معانيه ، بل ترك دائرة هذا النشاط تتسع ، لتشمل صنوفاً شتّى من أنواع الأعمال ، فلقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً مع أصحابه يوماً فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة ، قد بكر ليسعى ، فقالوا : ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله ، فقال

---

(١) سورة النور : ٥٥ .

(٢) سورة النجم ٣٩ و ٤٠ و ٤١ .

(٣) سوره الملك : ١٥ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تَقُولُوا هذَا فإنَّه إنْ كان خرج يسعى على وُلْدِهِ صِغَارًا ، فَهو فِى سبيل اللهِ ، وإن كان خرج يسعى على أَبوَيْن شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله ، وإن كَان خرج يَسْعَى على نفسه يُعِفُّهَا ، فَهو فى سبيل اللهِ ، وإنْ كان خرج يسعى رِياءً ومُفَاخَرَةً فَهوَ فى سبيل الشَّيْطَانِ »(١)

والمجتمعات الإنسانية أشبه بخلية النحل ، لكل نحلة فيها عمل ، فواحدة تبنى البيوت وأخرى تحرس الصغار ، وأخرى تمتص رحيق الأزهار ، ثم تخرجه عسلا فيه شفاءٌ للناس ، وغيرها تدافع عن الخلية وتطارد الأعداء ، فلو تركت نحلة عملها لحل بالخلية ضرر محقق ، وكلما كان عدد العاطلات أكثر كان الضرر أشد ، وكذلك شأن المجتمع ، يقوم على أعمال الأفراد وسعيهم وتعاونهم ، فهذا يبنى ، وذاك يزرع ، وغيره يصنع ، إلى غير ذلك من الأعمال التى تقتضيها حياة الأمة ونظام الجماعة ، فلو ترك الفرد عمله لحرمت الجماعة ثمرة سعيه ، وحل به وبها ضرر محتوم .

ولقد نظر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ما يفعله الكسل فى الأمم ، والبطالة فى المجتمعات . فنهى عن ذلك فى صورة أصدق ما تكون الصور ، وأنطق ما تكون الشواهد ، فقال عليه السلام : « أَخْشَى ما خَشِيتُ على أُمَّتِى كِبَرُ الْبَطْن . ومدَاوَمَةُ النَّوْم والْكَسَل »(٢) ، ونبه إلى فضل العمل اليدوى فى قوله : « لِأَنْ يَحْمِلَ أَحَدكُمْ حَبْلَهُ على ظهره فيَحْتَطِب ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاس ، أَعْطُوهُ أَوْ مَنَعُوه »(٣) . ، وقال : « ما أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَط خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِه وإنَّ نبِىَّ اللهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُل مِنْ عَمَلِ يَدِهِ »(٤) .

---

(١) رواه الطبرانى .
(٢) رواه الدارقطنى عن جابر رضى الله عنه .
(٣) رواه الزبيدى ، كتاب الزكاة .
(٤) رواه الزبيدى ، كتاب البيوع .

أيها المسلمون :

إن الله تعالى خلق هذا الكون لنا ، وسخره لننتفع بما فيه من خيرات ، فهو لم يخلقه لنفسه ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ولم يخلقه للملائكته ، فالملائكة جنس لا يجوع فيشبع بطعام ، ولا يظمأ فيروى بماء ، ولا يعرى فيتزين بلباس . ولم يخلقه للعجماوات ، فهى لا تدرك ما تفعل وهى تحيا وتسير . . ولذلك يقول العلى الكبير : (اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)(١) . وقد أجمل القرآن هذا الفضل المباح فى قوله تعالى : (هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً)(٢) ومقتضى هذه النعم أن ينشط المسلم وينطلق فى الأرض ، عاملا جاداً ، ليأكل من كد يمينه ، وعرق جبينه ، ويحقق لنفسه العزة التى أرادها الله لعباده المؤمنين ، والتى حرص عليها أشد الحرص سلفنا الصالح ، حيث كان الواحد منهم يرى نفسه أكرم من أن تذل لتكرم ، أو تسترق لمستعبد . هذا هو أبو ذر الغفارى رضى الله عنه ـ وهو المقل الزاهد ، يأبى عطية عثمان ابن عفان على عظيم شأنه ، وقوة صداقته ، وإخلاصه لصاحبه : روى الإمام أبو الحسن يحيى بن نجاح أن عثمان بن عفان رضى الله عنه بلغه أن صاحبه أبا ذر فى ضيق من العيش ، فأرسل إليه بصُرَّةٍ فيها نفقة على يد عبد له ، وقال له : إنْ قبِلَهَا فأنت حر ، فأتاه فلم يقبلها ، فقال : اقبلها ـ يرحمك

(١) سورة إبراهيم : ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ .
(٢) سورة البقرة : ٢٩ .

الله ـ فإن فيها عتقى ، فقال أبو ذر : إن كان فيها عتقك فإن فيها رقّى ، وأبى أن يقبلها إعزازًا لنفسه ، وتكريماً لها .

أيها المسلمون :

ما كان العمل وابتغاء الرزق والتقلب فى البلاد والأخذ بالأسباب منافياً للتوكل على الله والثقة به ، ولقد أبرز الرسول ذلك فى عبارة واضحة أشد ما يكون الوضوح حينما جاءه أعرابى إلى المسجد ، وناقته من خلفه يقودها ، فقال : يا رسول الله، أأعقل ناقتى أم أتوكل ؟ فرد عليه الرسول قائلاً : « اعقلها وتوكل » ، ولقد أخرج الحاكم عن معاوية بن قرة قال : لقى عمر بن الخطاب ناساً لا عمل لهم فقال : من أنتم ؟ فقالوا : متوكلون . قال كذبتم ما أنتم متوكلون ؟ إنما المتوكل الذى ألقى حبة فى الأرض ، وتوكل على الله . ويقول بعض السلف الصالح: ليست العبادة أن تصُفَّ قدميك ، وغيرُك يقوت لك ، ولكن ابدأ برغيفك فأحرزه ثم تعبد . . وإذا قصرت الهمم ، واستلان الناس حياة الدعة ذهبوا يعللون كسلهم بتفرغهم للعبادة ، ألا فليستمعوا ما يقوله الرسول الكريم فيمن هو على شاكلتهم .

جلس عليه السلام يوماً فجلس أصحابه يثنون على رجل فقالوا : إن فلاناً يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويكثر الذكر ، فقال : أيكم يكفيه طعامه وشرابه ؟ فقالوا : كلنا يا رسول الله ، فقال : كلكم خير منه ، سمع الصحابة ذلك ، فاندفعوا يعملون وينشطون حتى قرن الله التجار منهم بالمجاهدين فى سبيل الله ، قال تعالى : (وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ)[1].

---

(١) سورة المزمل : ٢٠ .

بهذا الفهم الصحيح للإسلام من أنه إيمان وعمل ، وبهذه القيم الرفيعة ، انطلق الإسلام يحرر الشعوب فى آسيا وإفريقيا ، حتى أصبح دين الناس ، ودين العالم ، ويقف به فى آخر المغرب عقبة بن نافع على شاطئ المحيط الأطلسى يقول : اللهم رب محمد ، لولا هذا البحر لحررت الدنيا فى سبيل إعلاء كلمتك ، اللهم اشهد ، ويتجه به إلى آخر المشرق قتيبة الباهلى ، ويأبى إلا أن يتوغل فى هذه الجهة فيقول أحد أصحابه محذرًا : لقد أوغلت فى بلاد الشرك يا قتيبة ، والحوادث بين أجنحة الدهر تقبل وتدبر ، فيجيبه قتيبة : بشقتى بنصر الله أوغلت ، وإذا انقضت المدة لم تنفع العُدة . فرد عليه المشفق المحذر قائلا : اسلك سبيلك حيث شئت ، فهذا عزم لا يفله إلا الله . . .

فاتقوا الله عباد الله ، وتفهموا مبادئ الإسلام وأهدافه ، وسيروا سيرة أسلافكم من الإيمان بالله وحده ، وتأكيد هذا الإيمان بالعمل الصالح ، حتى تسعدوا فى دنياكم وتكتبوا لأنفسكم العزة فى أخراكم ، وحتى يكون المجتمع الإسلامى مجتمعاً قويًّا عزيزًا فى دنيا الناس ، والله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا .

ورد فى الأثر الصحيح : « ليس الإيمَانُ بالتَّمَنِّى ، ولَكِنْ مَا وَقَر فى الْقَلْبِ وصَدَّقَهُ الْعَمَلُ ، وإنَّ قَوْماً غَرَّتْهُمُ الْأَمَانِىّ وقَعَدُوا عَنِ الْعَمَلِ وقَالُوا : نَحْنُ نُحْسِنُ الظَّنَّ باللهِ ، وكَذَبُوا ، لو أَحْسَنُوا الظَّنَّ لأَحْسَنُوا الْعَمَل »[1] ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ولجميع المسلمين .

---

(١) روى أصل الحديث الديلمى فى مسند الفردوسى .

العروبة والإسلام

الحمد لله يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، ويؤيد بنصره من أطاعه واتقاه ، ويكتب العزة لمن يستمدها منه ، ومن يجعل التقوى رائده : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)[1] . وأشهد أن لا إله إلَّا الله ، بعث فى الأُميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويرشدهم إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة، وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله كرّم اللهُ برسالته الإنسانيةَ ، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور : (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِى بِهِاللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[2] . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد :

فيقول الله تعالى وهو أصدق القائلين : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ)[3] . . .

يا عباد الله :

الله تعالى يخاطب الأُمة العربية التى أعزها بالإسلام ، مبيناً لها قدرها فى هذه الأرض كى تنهض بواجبها عن بينة ، ويعرفها بم استحقت هذا القدر ، وبم كانت لها هذه المنزلة ؟ إن هذه الأُمة خير أمة أخرجت للناس ،

---

(١) سورة فاطر : ١٠ .
(٢) سورة المائدة : ١٥ و ١٦ .
(٣) سورة آل عمران : ١١٠ .

وليس ذلك محاباة لها ، ولا صفة تلحق بها من غير أن تكون لها مقوِّماتها ، وليست كما قال اليهود عن أنفسهم : « إنهم شعب الله المختار » ، فى دعوى بلا بينة ، وفى كلام بلا مضمون ، بل جعل الخيرية لهذه الأُمة نتيجة العمل الإيجابى لإصلاح الحياة وترقيتها ، وثمرة قيامها بالعمل الحق ، وتحملها تبعة الدعوة إلى الله وإلى الفضائل والأخلاق الرفيعة ، والمثل العليا الكريمة . . . فالأمر بالمعروف عمل إيجابى لإرشاد البشرية إلى ما يصلحها ، ويرفع شأنها ، والنهى عن المنكر تصدٍّ للانحراف فى مختلف صوره ، والعمل على مقاومته . وكلا الأمرين : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر متعب وشاق ، ولكن كلاهما ضرورى لإقامة مجتمع صالح ، وتحقيق حياة طيبة ، وهنا يجىء دور الإيمان بالله ، فما يصبر على تكاليف هذين الواجبين إلا مؤمن صادق الإيمان ، يرتكن إلى الله فى كفاحه ، ويستمد منه النصر والتأييد ، وهو وحده الذى ينصر المخلصين من عباده : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[1] .

يا عباد الله : إن الأُمة العربية بما تيسر لها من فطرة سليمة ، ودين قويم جديرة بأن تكون خير أمة أُخرجت للناس ، وحريَّة بأن تحيا عزيزة الجانب سيدة فى دنيا النَّاس . فأما فطرة الأُمة العربية فقد كان لها ذلك حتى قبل أن يكرمها الله بالإسلام ، كان لها أخلاق رفيعة ، وربما كان لها فى جاهليتها بعض الرذائل ، ولكن هناك فرقاً بين الرذائل التى تنشأ فى الأُمة العربية ، والرذائل الموجودة فى غيرها ، فوأد البنات رذيلة بلا ريب ، ولكنها نشأت عن فضيلة تطرفت وانحرفت ، وهى المحافظة على العرض والشرف .

وكانت ترعى حقوق الجار ، وتحافظ عليه وتحمى من يلوذ بها ، وكان

---

(١) سورة غافر : ٥١ .

المرءُ منهم يبذل دمه وماله فى سبيل كلمة يقولها ، أو وعد يعطيه .

وبُعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى الإسلام ، ودعوتهم إلى هذا الدين دعوة إلى ظل وارف وفضل بالغ ، وسعادة شاملة ، وعدالة لا يطمع البشر فيما هو خير منها ، ورسالات السماء فى جوهرها تهدى الإنسانية إلى معالم الحق ، وتبصرها سبيل الخير ، وترشدها إلى طريق العزة والكرامة ، ويمتاز رسل الله بأنهم مصادر عقيدة ، ومنابع إيمان ، لا مؤمنون وأصحاب عقيدة فحسب ، فهم الذين يرشدون الناس إلى طريق الهدى والرشاد ، وهم الذين يوجهونهم إلى أن يجعلوا كل شىء فى الدنيا وراء المعتقد ، وأهون منه وأرخص ، وإلى أن يعتزوا بالقيم الرفيعة ، وإلى أن يستمسكوا بالحق والفضيلة ، ويستسهلوا الصعاب فى سبيل بلوغ الأمجاد ، وأن يضحوا بما يشتهون ، من أجل أن يعيشوا أحرارًا أعزة ، مؤيدين بتوفيق الله ونصره ، وقد وجد الإسلام فى هذه الأُمة العربية ، أرضاً طيبة تقبلته بقبول حسن ، وسارع إلى اعتناقه من له فطرة خالصة ، وفكر صاف ، وقلب طيب ، ووجدوا فيه السبيل التى تصل بهم إلى المستوى الكريم للإنسانية ، ورأوا فى تعاليمه ما يوافق أصالتهم وخلقهم من الدعوة إلى معالى الأُمور ، والحث على أنبل الغايات ، والإسلام فى كلمة واحدة هو التحرر ، تحرر الفكر من الوثنية والخرافة ، وتحرر السلوك من الإثم والرذيلة ، وليس هو مجموعة تصورات يحتويها العقل من غير مضمون ، إنما هو معتقد يصحبه عمل ، وإيمان يصوّره سلوك ، وحينما وجد الإسلام أن بعض العرب قد انحرف فى عقيدته واجهه بحزم ، ورد العقيدة إلى الصراط المستقيم ، جاء نفر من وجهاء قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا محمد ، انسُبْ لنا ربك ، كأنهم لا يتصورون إلهاً بغير أسرة ، فأجابهم القرآن الكريم بقوله : ﴿قُلْ هُوَ

اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (١) والإسلام كذلك يحرر السلوك من كل الضغوط والانحرافات ، يحرره من سلطان الغريزة حتى ما كان منها متصلا بحب الذات ، ورغبةِ البقاء ، حيث يحرص الإنسان على حياته حرصاً قد يقعده عن مواطن الجهاد وشرف التضحية ، والقرآن الكريم يندّد بمن يركن إلى مغريات هذه الحياة ، ويشغل نفسه بها عن سموّ الأهداف فيقول : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُم وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (٢) . ودرَّب الإسلام أبناءه على عزة النفس ، فعاشوا أعزة بمبادئهم ، عظماء بأخلاقهم ، استمع معى أيها المسلم إلى حديث أبى ذر الغفارى ، وهو المقلّ الزاهد ، حينما رفض عطية عثمان بن عفان ، على عظيم شأنه ، وجلال نفسه ، فقد بلغه أن صاحبه أبا ذر فى حاجة ، وهو لا يسأل الناس ، وفضَّل أن يبيت على الطوى أياماً ذوات عدد ولا ينبئ أحدًا بحالته ، فأرسل إليه بصرة فيها نفقة على يد مولى له ، وقال : إن قبلها منك فأنت حر ، فأتاه بها ، إلا أن أبا ذر رفضها ، فقال له مولى عثمان : اقبلها يرحمُك الله فإن فيها عتقى ، فأجابه أبو ذر مستوحياً عزة الإسلام ، ولعله كان فى أشد الحاجة إلى لقمة تشبع ، وإلى ثوب يستر : يا أخى ، إن كان فيها عتقك ، فإن فيها رقّى ، وأبى أن يقبلها .

وللإسلام مبادئ رفيعة ، طبقها العرب فى واقع حياتهم ، فعاشوا أعزة أحرارًا . فالإسلام الذى يقرر عقيدة التوحيد يؤكد فى الوقت نفسه حق الفرد فى الحياة الحرة الكريمة ، كما يؤكد حقه فى حياة لا يجوع فيها ولا

(١) سورة الإخلاص .
(٢) سورة التوبة : ٢٤ .

يعرى ، ولا يظمأ فيها ولا يضحى ، ويؤكد حقه فى مساواة لا تطمع البشرية فيما هو أسمى منها ، ويؤكد مبدأ تكافؤ الفرص . فحق العمل مكفول لكل قادر ، ولكل عامل جزاء مناسب لما أداه من عمل : (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى)[1].

والمجتمع الذى أقام دعائمه رسول الله فى المدينة عقب هجرته إليها أكد فيه هذه الحقوق ، فقد أزال الفوارق بين القادمين إليها ، من أهل مكة الذين تركوا ديارهم وأموالهم فيها ، وبين أهل المدينة وهم أصحاب الدور والأموال ، وتقاسم أهل البلد مع الوافدين إليهم أموالهم ، ونزل القرآن مزكياً هذا الصنيع ، مثنياً على هذا الموقف النبيل فيقول : (والَّذِين تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[2].

وقد سعدت الأمة بهذه المبادئ ، فتمسكوا بها ، وحرصوا على دينهم أشد من حرصهم على حياتهم ، فحينما أرادت قريش أن تقف فى وجه دعوتهم تصدَّوا لها بكل ما يملكون من قوة وعزم وإيمان ، واستنهضوا عروبتهم ودينهم ، وقاتلوا المشركين فى معارك طاحنة إعزازاً لدين الله ، وتمكيناً لعزتهم وحريتهم وكرامتهم ، متمثلين قوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)[3] ، وقوله : (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)[4] ، وقول الرسول الكريم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَضَمَّنَ الله لِمَنْ خرج فى سبيله ، لا

---

(١) سورة النجم : ٣٩ و ٤٠ و ٤١ .
(٢) سورة الحشر : ٩ .
(٣) سورة التوبة : ١٢٣ .
(٤) سورة التوبة : ٤١ .

يُخْرِجُه إلا جِهَادٌ فى سَبِيلِى وإيمَانٌ بِى ، وتصديقٌ برُسُلِى فَهُوضَامِنٌ أَنْ أُدْخِله الْجَنَّة ، وأُرْجِعَه إلى منزله الذى خرج منه بما نَالَ من أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، والَّذى نفس محمد بيده ، ما من كَلْمٍ يُكلَم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهَيْئته يَومَ كُلِمَ ، لَوْنُه لَوْنُ دَمٍ ، وريحُهُ ريحُ مِسْك ، والذى نفس محمد بيده لولا أن يَشقَّ على المسلمين ما قَعَدْت خِلافَ سرية تغزو فى سبيل الله أبدًا ، ولكن لا أَجدُ سَعَة فأَحْمِلهم ، ولا يَجدُونَ سعة ، ويشق عليهم أن يتَخَلَّفُوا عَنِّى ، والذى نفس محمد بيده لَوَدِدْتُ أن أَغْزُو فى سبيل الله فأُقتل ، ثم أغزو فأُقْتل ، ثم أغزو فأُقتل »[1]. لقد عز العرب بهذا الدين ، وأعزوه بقوتهم وبأخلاقهم ، والعلاقة وثيقة بين العروبة والإسلام ، فالعروبة وعاء الإسلام ، والإسلام روح العروبة فهو خير حافز للخصال الطيبة والطاقات الصالحة فى الأُمةِ العربية ؛ وحمل هذا الدين العرب الأَمجاد وطوّفوا به البلاد يدعون الناس إليه ، وهم إذ يدعونهم إلى اعتناقه فإنما يدعونهم إلى سعادة الدنيا وعزِّ الآخرة ، ويقف واحد منهم أمام يزدجرد ملك الفرس ، ويقول له فى عزة المؤمن الواثق من نصر الله له : « إن الله قد ابْتَعَثَنا لنُخْرِجَ مَن شاء من عبادة الأَصنام إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأَديان إلى عدل الإسلام » ، ويمتد نور هذا الدين من الصين شرقاً إلى المحيط الأَطلسى غرباً ، ويقف به عقبة بن نافع على شاطئ هذا المحيط. فيقول وقد خوّض جوادُه فى الماء : والله رب محمد ، لولا هذا البحر لحررت الدنيا كلها فى سبيلك ، اللهم اشهد . . . عاش العرب أعزة بهذا الدين يتفيئون ظلال حضارته ، ينعمون بها ، ويفيضونها على غيرهم ، فالعرب لهم الفضل الأَكبر فى تقدم العلوم الطبيعية فى أوربا الحديثة ، هذه الحضارة الشامخة سعد بها المسلمون عبر تاريخهم الطويل ،

---

(١) رواه مسلم .

وأمَّا ما أصابهم من فتور فى بعض فترات من تاريخ حياتهم ، فليس ذلك من ذاتية العرب ، وليس ذلك من دينهم ، وإنما مرجعه إلى محاولات آثمة للاستعمار ، وغزوه العسكرى والفكرى بلادَ المسلمين ، محاولا صرفهم عن جوهر دينهم إلى أعراض زائلة ، وإبعادهم عن اللباب إلى القشور ، فالاستعمار لا يرضى للعرب العزة ، ولا يحب لدعوة الإسلام أن تنتشر ، ولقد أشعل المستعمرون نيران الحروب الصليبية ، بهدف إخضاع العرب لهم ، لكن الفطرة الطيبة الكامنة فيهم ، ودينهم الذى يدعوهم إلى حياة العزة والكرامة ، دفع بهم إلى منازلة الاستعمار الصليبى فى فتراته الطويلة التى جثم فيها على صدر أمة العرب ، وتحررت أرض العروبة على يد صلاح الدين . .

حاول الاستعمار مرة أخرى إخضاع العرب ، وقاوموا وصمدوا وانطلقت صيحة الحق أمام أمة العرب جميعها ، ووجد المستعمر نفسه أمام طاقات من الإيمان تهدر بالغضب ، وتثور من فورة الغيظ . وتلتقى على صورة إجلائه عن الوطن العربى ، بل عن كل شبر من أرضه ، وما نحس به اليوم من كفاح صامد فى أرجاء الوطن العربى ليس إلا إصرارًا من أبناء هذه الأمة على طرد المستعمر الغاصب ، وإن فلسطين مشرق الديانات أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى محمد بن عبد الله ، أولى القضايا التى هزت المشاعر ، وأجمعت على تخليصها القلوب ، وها هى ذى خطوات الكفاح تتخذ حقيقة واقعة ، وهى خطوات مرفقة بإذن الله ، وستدمر إسرائيل تدميرًا ، وستبقى أرض العرب للعرب .. فاتقوا الله عباد الله وارفعوا على أساس الإيمان ، وعلى هدى من تعاليم القرآن ، وتراث أمتنا المشرق ، بنياناً من الأمجاد ، يتحقق لأمتنا وعد الله بالنصر والتأييد : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)(١).

---

(١) سورة محمد : ٧ .

التفرقة العنصرية

الحمد لله ، رب السموات ، ورب الأرض ، رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له . خلق الناس جميعاً من آدم ، وخلق آدم من تراب ، ثم ذكرنا بهذه الحقيقة فى محكم كتابه فقال : (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ، وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ . وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخرى)[1] ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بلغ عن ربه شرعة المساواة . فكان رحمة للعالمين . اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأنصاره إلى يوم الدين .

أما بعد ، فيقول الحق سبحانه فى كتابه الكريم : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[2] .

أيها المسلمون : هذه آية من الآيات الكريمة يخاطب الحق سبحانه فيها الناس أجمعين ، أبيضهم ، وأحمرهم ، وأسودهم ، غنيَّهم وفقيرَهم ، قويَّهم وضعيفهم ، حاكمهم ومحكومهم ، خطاباً صريحاً ، لا لبس معه ولا مواربة ، عن حكمة الخلق ، والمهمة المعلقة برقابهم بناءً على هذه الحكمة ، وجوهر هذا الخطاب أن الله سبحانه سوَّى بين الخلق فى أصل الخلقة ، فهم جميعاً من ذكر وأنثى ، وسوى بينهم فى الأصل الاجتماعى ، فكل منهم ينتمى إلى شعب أو قبيلة ، وجعل مصيرهم محكوماً بسنة الاجتماع ، فمن الضرورى أن يتعارفوا ، ثم قرر الله سبحانه دستوراً وضع على حده جميع

(١) سورة طه : ٥٥ .
(٢) سورة الحجرات : ١٣ .

الخلائق ، مؤداه أن الناس فى هذه الدنيا بالنسبة إلى الخالق وفى ميزانه سواءٌ ، لا يتفاضلون إلا بالتقوى ، وهى كل ما ينال الله سبحانه من عباده ، فالمال مهما كثر ليس بذى ثقل فى ميزان الله ، والقوة مهما عظمت لا تعدل شيئاً فى حكم الله ، والجنس مهما ساد لن ينال الله منه شىء ، وإنما ينال الله من عباده التقوى ، فهى أساس الثواب يوم الحساب ، وصدق الله العظيم : ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[1] .

وقد كانت هذه الآية القرآنية أول إعلان فى التاريخ لحقوق الإنسان ، وأول تأكيد لكرامته ، وأول إشهار لحق المساواة بين الناس على اختلاف طبقاتهم ، وتباين مستوياتهم .

ومن قبل الإسلام كان الناس منقسمين إلى حكام طغاة ذوى سيطرة وسطوة ، ومحكومين يسامون كالأنعام ، ولا وسط بين هذين ، وهكذا يذكر التاريخ انقسام الدولة الرومانية إلى جماعتين : أحرار ، هم الجنس الرومانى ، وعبيدهم سائر شعوب الأرض ، مع أن هؤلاء الرومان كانوا يدّعون الإيمان بالمسيحية . وكذلك تجبَّر الأكاسرة فى حكم بلاد فارس ، فانقسم مجتمع الفرس آنذاك إلى آلهة ، ومسخرين لخدمة الآلهة .

حتى إذا جاء الإسلام أعلن قراره الحاسم لمشكلة التفرقة بين البشر على أساس الجنس أو اللون ، فقال : « النَّاسُ بَنُو آدَمَ ، وآدَمُ مِنْ تُرَاب »[2] . كما منع التفرقة على أساس المال أو الجاه أو القوة ، فكل هذه أعراض زائلة ، لأنها من مادة الدنيا ، والدنيا كلها إلى فناء ، وإنما يتفاضل الناس على أساس المعانى الباقية ، والقيم الخالدة ، معانى الآخرة التى يتوقف عليها مصير الناس : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[3] .

---

(١) سورة النحل : ١٢٨ .
(٢) من حديث رواه أبو داود والترمذى .
(٣) سورة الشعراء : ٨٨ و ٨٩ .

فهم الناس على عهد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى البسامى ، برغم أنهم كانوا ينتمون إلى قبائل تتفاخر فيما بينها بالأنساب ، ولكن الأنساب والأحساب والأموال كلها قد تأخرت مرتبتها فى سلم القيم الاجتماعية ، لتحل محلها قيم من نوع جديد على وعى البشرية ، قيم المساواة بين الأجناس والألوان ، قيم التفاضل على أساس الفضائل والأخلاق القويمة ، والأعمال التى لا يبتغى بها إلا وجه الله سبحانه ، فالناس جميعاً ، مهما تفاوتت أقدارهم أو مقدراتهم المادية ، سواسيةٌ كأسنان المشط ، سواء فى ذلك عمر القرشى ، وبلال الحبشى ، وصهيب الرومى ، وسلمان الفارسى ، بل محمد النبى . وصدق الله العظيم : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)[1] .

ومن الأخبار التى تروى عن تفاعل المجتمع الإسلامى مع هذه الحقائق الإلٰهية ما روى من أن رجلا من المسلمين رأى ذات يوم المهلب بن أبى صفرة يمشى مِشية الخيلاء والكبرياء فى ثياب فضفاضة سابغة ، وقد كان المهلب من كبار القادة المعدودين آنذاك ، لكن مشيته وخيلاءه لم تعجبا ذلك المسلم ، فتساءل مستنكرًا : ما هذا يا مهلب ، ما هذه المِشيةُ التى يُبغِضها الله ورسوله ؟ قال المهلب : أما تعرف من أنا ؟ . . قال الرجل . . . نعم أعرفك ، أوَّلك نطفة مذِرة ، وآخرك جيفة قذرة ، فعلام التكبر والخيلاء يا مهلب ؟ . . .

فذهل المهلب وثاب إليه عقله ، فألقى بثوبه الفضفاض إلى خادمه ، وأقسم ألا يلبس بعد ذلك إلا ثياباً مقصَّرة ، على ما جاءت به السنة ، إن ذلك المسلم الذى آمن بالله ربًّا ، لم يؤخذ بمكانة المهلب ، فالمهلب ليس سوى عبدٍ لله ، كسائر العبيد ، بل إنه فى موقفه هذا المتكبر ، صغيرٌ مغضِب لله ،

---

(١) سورة فصلت : ٦ .

والواجب أن يرده إلى الصواب أى مسلم رشيد ، بصرف النظر عن المركز أو الطبقة ، أو المهابة التى كانت له .

لقد وضع الإسلام الإنسان بتكريمه إياه فوق المنافع الدنيوية ، أو المصالح الاقتصادية ، فالإنسان أولا ، كل شيء مسخر له ، من حيث هو إنسان ، فهو سيد المخلوقات الأخرى ، ولا شيء فى الدنيا يمكن أن يستعبده ، وكذلك لا ينبغى أن يكون الإنسان عبد الإنسان ، لأنه ما كان لإنسان أن يصير إلهاً ، وهو مخلوق لله ، وهكذا عرفت الشعوب المختلفة معنى المساواة الحقة فى دعوة الإسلام ، فاستجابت لها استجابة مخلصة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، أحمرهم وأبيضهم وأسودهم ، إذ كانوا يجدون فى الإسلام دعوة إلى التحرر من العبودية ، ودعوة إلى هدم الطبقة ، ودعوة إلى محو الامتيازات الفردية ، وإقراراً لمبدإ التكافؤ فى أسمى صوَره ، حين أعلن النبى صلى الله عليه وسلم قولته الخالدة : « ذِمَّةُ المُسْلِمِينَ واحِدَةٌ ، يَسْعَى بها أَدْنَاهُمْ ، فمن أَخْفَرَ مُسْلِماً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ والْمَلائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمعِين »[1]. هنا تحول الدم إلى تيار يحمل كل معانى التكافؤ والمساواة ، تيار ذابت فيه العنصرية الكريهة ، وانجرفت أمامه نعرات الطائفية والجاهلية .

أين هذا أيها المسلمون مما تجرى عليه مبادئ بعض الدول الآن من فلسفات عنصرية ، يدمى بها وجه الحياة عندهم ؟ !

بل إن الرجل الأبيض ليفخر بممارسة التفرقة العنصرية فى أرضه ، حيث يفصل فصلا تاماً حياة الملونين عن حياة البيض ، إيماناً بأسطورة التفوق الجنسى للبيض على السود ؛ فللبيض كل طيبات الحياة ، ومناصبها ،

---

(١) رواه مسلم .

ومقاعد الصدارة فيها ، وللسود من ذلك النفايةُ والمقعد الأخير . ومن الغريب أن يحدث هذا فى أمريكا ، حيث يزعم السادة هنالك أنهم حماة الحرية ، ودعاة المساواة فى العالم ، على حين نسمع كل يوم أخباراً عن اضطهاد الهنود الحمر والزنوج ، واحتقارهم ، وعزلهم عن المجتمع والاختلاط به ، وأغرب من ذلك أن نسمع عن إعلان مكتوب على أبواب الأماكن العامة : « ممنوع دخول السود والكلاب » . وليت الزنوج بلغوا مكانة الكلاب فى ذلك المجتمع المهرج الكذاب .

وأشد المشكلات إيلاماً أن نجد هذه التفرقة ممارسة فى فلسطين ضد العرب ، وفى قارتنا إفريقيا ، حيث استقرت أقليات من البيض فى بعض المناطق ، فأنشأت لنفسها حكومات عنصرية تبطش باسم اللون الأبيض بأصحاب البلاد الأصليين ، وتحرم عليهم طيبات بلادهم ، وتمنعهم من كل ما يؤهلهم للحياة الكريمة ، من تعليم أو علاج ، كما تفرض عليهم الفقر المؤبد ، ليظلوا فى مستوى العبيد فى قصور البيض المستعمرين .

إن السبب الجوهرى الذى يكمن خلف هذه التفرقة الشائنة هو أن الرجل الأبيض يعيش فى العصر الحديث بضميرين : ضمير المتحضر الراقى بين قومه من البيض ، وضمير المستعمر الجشع مع ضحاياه من السود ، فالأخلاق والفضائل وسائر القيم الاجتماعية السامية ليست للتداول خارج جنسه ، وإنما هى عملة محدودة الانتشار ، حكر على طبقة السادة من المستعمرين . ولا ريب أن هذه التفرقة تسير على نقيض ما جاء به الإسلام ، ديننا الحنيف ؛ فهو دين أقر للإنسان بالكرامة ، وجعلها له حقًّا إلٰهيًّا ، ولكن هذه التفرقة قد امتهنت كرامة الإنسان وداستها بعجلاتها ، وهو دين علم الإنسان أن الكون كله مسخر لخدمته ، وهى قد عاملت الإنسان على أنه شىءٌ

من أشيائها ، شيء حقير مبتذل .

وهو دين جعل المصالح الاقتصادية فى مرتبة دون مرتبة الإنسان ، على حين قدمت التفرقةُ الاقتصادَ على الإنسان ، وجعلت الاقتصاد سيده ذا الأمر المطاع . وهو دين حمل إلى البشرية قيماً صادقة فى صيغها ، وفى تطبيقها ، وهى قد تعاملت مع البشرية بوجه منافق ، ولسان يقطر كذباً وادعاءً . ومن هذا التناقض بين ما تجرى عليه الحياة فى تلك الدول وبين ما جاء به الإسلام أدرك المضطهدون والمعذبون سمو ديننا على ديانات هؤلاء العنصريين ، الذين لم تؤثر فى سلوكهم تعاليم المسيحية التى يدينون بها ، فإذا بها بدت عاجزة عن توجيه الحياة الإنسانية إلى خيرها ، مشلولة عن إنقاذ ضحايا معتنقيها . وهكذا . . أقبل الزنوج على اعتناق الإسلام ، يملؤهم الأمل فى قهر موجات التمييز العنصرى ، وفرض حقوقهم الإنسانية على تلك المجتمعات الظالمة ، هذا فى أمريكا . . . أما فى إفريقيا فإن شعوب هذه القارة السوداء تتطلع ولا شك إلى الإسلام ، عدو التفرقة ، ورافع لواء المساواة بين الأجناس والألوان : (يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً ، وَقَبائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) .

وإن واجبنا أيها المسلمون تجاه هذه الشعوب المغلوبة هو نفسه واجبنا تجاه ديننا ، الذى يجب أن نرفع لواءه ، ونعلن كلمته ، فإن تعاليمه هى أشد ما وجه فى التاريخ إلى التفرقة العنصرية ، وهذه التعاليم هى المفتاح السحرى لنفسية إفريقيا المتعطشة إلى الحرية ، وإلى العقيدة المحررة ، بعيداً عن المبادئ الهادمة ، ودعاوى الأفاقين من العنصريين .

لقد فتحت إفريقيا ذراعيها للإسلام ، يوم كانت ترزح تحت نير الاستعمار ، أو تحت أقدار التخلف والفقر ، فالاستعمار والفقر صنوان ،

كلاهما جلاد لكرامة الإنسان ، فحين حمل التجار والدعاة المسلمون تعاليم الإسلام السمحة ، هبت الشعوب المتعطشة إلى الإيمان واليقين إلى وِرْدِها الصافى ، فأسلمت وجهها لله ، الذى أسلمها للحرية والرخاء : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)[١] .

إن ملايين المسلمين الذين تعرفنا منذ سنوات وجودهم فى أنحاء إفريقيا ، بعد أن خجبهم الاستعمار عنا قروناً طويلة ، هم ثمرة كفاح أسلافنا الأوائل ، بالدعوة الدائبة ، وبالقدوة الصالحة ، وبالكلمة الطيبة ، فيدين الناس فيها لأمر الله متى بلغهم ، حتى لو حمله إليهم عبد حبشى ، فالمهم أنه أمر الله رب العالمين .

فاتقوا الله أيها المسلمون ، واعملوا على نشر دينكم ، لإنقاذ هذه البشرية الضائعة بين استبداد العنصريين ، وأوهام الهدامين ، وقدموا للحيارى والمعذبين نفحة من الأمل والإيمان ، فإن ذلك هو أول خطوات الإنسان إلى الحرية والسلام .

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أنه قال فى خطبة الوداع : « أَيُّهَا النَّاسُ : إن ربَّكُمْ واحِدٌ ، وإنَّ أَبَاكُمْ وَاحدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لعَرَبِيٍّ على عَجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ على عَرَبِيٍّ ، ولا لِأَحْمر على أَسْود ، ولا لِأَسْود عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ »[٢] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يَوْمُ القِيَامَةِ أَمَرَ اللهُ مُنَادِياً يُنادِى : أَلا إنِّى جَعَلْتُ نَسَباً ، وجَعَلْتُمْ نَسَباً ، فجَعَلتُ أَكْرَمَكُمْ أَتْقاكُمْ ، فأَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا : فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ خَيْرٌ مِن فُلَان بن فلان ، فالْيَوْمَ أَرْفَعُ نَسبِى وَأَضَعُ نَسَبَكُمْ »[٣] .

---

(١) سورة المنافقون : ٨ . (٢) رواه البيهقى . (٣) رواه الطبرانى والبيهقى .

اخطار الصهيونية العالمية

الحمد لله جاعل الأيام بين الناس دولًا ، ومقلّب اللّيل والنهار امتحاناً وعبرة : (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) ، وأشهد أن لا إله إلّا الله القائل : (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[1] ، وأشهد أن محمدًا رسول الله نبي المرحمة ، ونبي الملحمة ، رافع ألوية الحق ، وخاذل ألوية الباطل ، اللّهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وآله وصحبه الذين أرسوا قواعد البطولة والشرف ، فاستحقوا مجد الدنيا ، وسعادة الآخرة .

أما بعد – فمنذ قرون طويلة واليهود يحيون في أرجاء العالم حياةً بعيدةً عن رضاء الله ، وطمأنينة الناس ، فهم لا يذكرون إلّا أنفسهم ، ولا يخدمون إلّا مطامعهم .

ووراء جدران سميكة من الأثرة والحقد عاشوا معزولين عن الشعوب التي عرفتهم ، والأوطان التي آوتهم ، حتى قال فيهم أحد الساسة : « إنهم كالديدان الطفيليّة في الجسم ، تسرق غذاءه ، وتمنع نماءه ، وتستمد قوتها من ضعفه ، بل تبني حياتها على فنائه » .

ومن هنا كرهتهم الأمم ، وتواصت الأجيال المتعاقبة بنبذهم وخصومتهم .

وإذا كان اليهود يشكون مما أصابهم من اضطهاد قديم ، وينشدون وطناً يلتقون فيه كما يقولون ، فإنهم أولًا وآخرًا سبب ما حلّ بهم من نكر ، وما نزل بهم من كره .

---

(١) سورة البقرة : ٢١١ .

ثم هم الآن يجيئون إلى أرض ليس لهم فيها مقام ، ويريدون أن يطردوا أهلها ليحلوا محلهم ، ويرثوا بالجريمة والغش حقهم . أى أنهم يعالجون آثامهم الأولى بآثام حديثة ، ويكررون ما يعرفهم العالم به من غدر وفساد ، وتلك طبيعة اليهود التى لا تتخلى عنهم ولا يتخلون عنها . والتى استحقوا بها لعنة الله المتصلة إلى قيام الساعة ؛ لقد كرهوا محمداً وخاصموا رسالته منذ ظهر ، إلى يوم الناس هذا ، وما بعثهم على هذا إلَّا الحسد والضيق : (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ)[1].

ومن قبل محمد عادوْا كل دعوة للخير ، ورسالة للإصلاح ، وقاتلوا الأنبياءَ وحوارييهم ، وأعانوا الحرب على كل آمر بالقسط. ، قائم بالحق ؛ فقال الله فيهم : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ. مِن النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)[2].

ولقد مضى اليهود فى هذه الطريق الموحشة العمياء يؤثرون الشر على الخير ، والفساد على الصلاح ، ويبعثرون بذور الرذيلة حيث حلُّوا ، حتى لترى أصابعهم وراء كل فتنة ، ومكايدهم خلف كل محنة ، وكأنما عقدوا حلفاً مع الشيطان أن يكونوا أعوانه الأوائل فى نشر العرى والتحلل ، وإثارة الشهوات وإلهاب الغرائز : (وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمْ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)[3].

---

(١) سورة البقرة : ٩٠ .
(٢) سورة آل عمران : ٢١ .
(٣) سورة المائدة : ٦٢ و٦٣ .

والواقع أن جمهورًا كبيرًا من بنى إسرائيل يكمن وراء التيارات المادية ، والعواصف الإباحية التى تهز الضمائر ، وتقتلع الأخلاق ، وتغرى الناس فى أقطار شتى بترك الفضيلة ، واتباع الهوى ، ونسيان الآخرة ، وعبادة اللذة .

وهذا العوج المنكور فى مسالك بنى إسرائيل هو السر فى نقمة المرسلين عليهم .

فمنذ أكثر من عشرين قرناً ندد أنبياء الله بهذه السيرة الضالة ، قال تعالى : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ)[1].

ومصادقة اليهود للكافرين التى كشفتها هذه الآية الكريمة تشير إلى طبيعة مكينة فيهم ، فهم أعوان لكل متمرد على الله ناقم على عباده .

حالفوا الوثنية قديماً ضد التوحيد ، وحالفوا المستبدين اليوم ضد آمال الشعوب فى الحرية والسلام ، بل لقد أصبحوا وسط الأمة الإسلامية المحروبة الأداةَ التى تستعمل لسحق ومطاردة أصحابها ، فلم يجد أبالسة الاستعمار سلاحاً أخس منهم لبلوغ مآربه ، ونصب حبائله .

ومن خلائق اليهود الشائنة أنهم يقترفون المعاصى دون شعور بالإثم ، ويرتكبون الجرائم دون إحساس بالعدوان ، لأنهم يحسبون أن غيرهم من الشعوب لا وزن له ، ولا حساب لما يُصنع ضده . وتوارثوا فلسفة من الغرور بالنسب ، والاستعلاء بالدم ، لا أصل لها عند الله ، ولكنها سيطرت عليهم ، وسوّلت لهم أفعالا لم تقع من شعب آخر على امتداد التاريخ .

---

(١) سورة المائدة : ٧٨ و ٧٩ و ٨٠ .

أجل فقد اشتهر بنو إسرائيل منذ عهود سحيقة بغلظ الطباع ، وقسوة القلوب ، فهم فى سبيل أثرتهم ومطامعهم لا يرقُّون لضعف ، ولا يتحركون لألم .

وكل ما يعنيهم أن يحيوا وفق ما يريدون، وأن يصوغوا ما حولهم فى القالب الذى يشتهون ، ولو كانت هذه الصياغة من اعتصار الدماء ، وسحق الأحياء .

وقد صور الشاعر الإنجليزى شكسبير جشع اليهود ، واستهانتهم بأحزان الغير ، فكان تصويره الرائق تفسيرًا من أقصى الشمال للوحى النازل فى جزيرة العرب من أربعة عشر قرناً يصف هؤلاء اليهود فيقول : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[1] .

ولعل ما يعين على هذا السلوك المنحرف ويفلسفه ، تصوّر اليهود أنهم شعب خلق من معدن آخر غير ما خلق منه سائر البشر ، ومن ثم لا يكترثون طويلا لمشاعر الآخرين ، كيف وهم دونهم أصلا ومكانة ؟ بل يستبيحون غصبهم ونهبهم ، ويستحلون دماءهم ومقدساتهم ، ولا يحسون بعد ذلك كله أنهم اقترفوا محظوراً . . .

وتمشياً مع هذا المنطق الحيوانى ارتكب بنو إسرائيل فى هجومهم على فلسطين مذابح شائنة ، وسفكوا دماءً غزيرة .

وليس المعروف من هذه المآسى إلّا جزءًا يسيرًا مما ارتكب فى الخفاء ، وأسدل عليه الاستعمار الغربى ستارًا من الكتمان والتغاضى .

وكم فى تراب غزة ، وقطاعها المحروب من ضحايا ، انفرد بهم الضمير الإسرائيلى ، فعفَّر جباههم ، وأخمد أنفاسهم ، وأورد شبابهم الحتوف . . .

إن الإسرائيليين سوف يُسْتدْعَوْنَ يوماً ـ لعله قريب ـ لتقديم حساب عسير عن هذه الدماء المسفوكة ، وتلك الجرائم الوحشية .

(١) سورة البقرة : ٧٤ .

وإذا كانوا قد قدروا على تضليل المحافل العالمية ، فإن حبل الخداع قصير ، وسنقصِّره نحن على أية حال ، ويومئذ ينكشف المزاج الدموى لشعب ظامئ إلى الدم الحرام ، يلغ فيه ويتشبع منه .

والغريب أن وراء هذا المزاج تفكيراً مكتوباً افتعل بنو إسرائيل سطوره ، ونسبوها لله ، والوحىُ الإلٰهى يستحيل أن يدفع إلى هذه الآثام .

والويل للبشرية من قوم يرون استباحة الآخرين ديناً ! إنهم يرتكبون المآسى وكأنهم يؤدون صلوات . . .

اقرأ هذا الذى كتبه اليهود وساروا عليه فى معاملة أعدائهم ، وجعلوه ديناً ، وما هو بدين : «حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، وتستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلٰهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلٰهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلٰهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريماً . . . »[1] ومعنى تحريمها ، استئصالها وقطع دابرها ، وعدم الإبقاء على أثر للحياة والأحياء فيها .

تلك هى المشاعر التى يكنها الصهيونيون لعباد الله ، وينبعثون عنها فى قتالهم ، فإذا حالت ظروف خارجية دون إنفاذها ، فإن المزاج الدموى للشعب المعقد يدع فريسته كارهاً ، وهو يود لو جثم على أشلائها ، وارتوى من عروقها .

---

(١) من شريعة العهد القديم كما جاء فى الإصحاح العشرين من كتاب التثنية .

هذه النظرة الإسرائيلية لحقوق الآخرين وأموالهم وأمنهم تناولها القرآن الكريم بالتقرير والتعقيب ، فقال : (وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)[1] ، أى لا حرج علينا فى اغتصاب أبناء الأمم الأخرى . (وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)[2].

إن الله وصَّى أتباع الأنبياء جميعاً بالوفاء والشرف فى معاملة الآخرين، مهما اختلف الدين ، لكن بنى إسرائيل استهانوا بهذا الموثق ، واستمرءوا العدوان والغدر ، فقال جل شأنه : (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . . .) ، تُرى هل يتوبون ؟

إن القرآن الكريم يؤكد أن جمهرتهم العظمى لن تدع سبيل القسوة والغدر والافتيات . فيقول : (وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ، إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ)[3]

وقد استطاع بنو إسرائيل فى غفلة من الحق ، وفُرقة من العرب أن يقيموا لهم دولة بين ظهرانينا ، تكون درعاً للشيطان وجسراً للاستعمار ، ولكن العرب والمسلمين ما سكتوا ، ولن يسكتوا عن هذا العدوان المبيت ، مهما ظاهره من قوى الشر ، وهم يعلمون أن المستقبل لهم إذا كان اليوم لعدوهم ، وأن الكفاح المرير الناشب الآن بين العرب والصهيونية لا بد أن ينتهى بنصرة العدل ، ولعنة الظالمين ، مصداق قوله جل شأنه : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)[4]

(١ و ٢) سورة آل عمران : ٧٥ و ٧٦ .
(٣) سورة المائدة : ١٣ .
(٤) سورة الأعراف : ١٦٧ .

والعجب أن يحاول اليهود إعطاء دولتهم صبغة دينية ، وأن يجلبوا اسم نبى كريم ليكون عنواناً لها ، والواقع أن الشقة فسيحة بين كلمة « إسرائيل » الواردة فى كتب الله ، وبين كلمة « إسرائيل » المتداولة الآن على الألسن .

فإسرائيل فى لسان الوحى لقب تكريم لنبى الله يعقوب ، حفيد أبى الأنبياء إبراهيم .

والجد وحفيده رجلان صالحان دعوا الناس إلى الصلاح والاستقامة . وتقربا إلى الله بالتقى والطهر ، أما إسرائيل اليوم فعلم على دولة افتعلها العدوان الصريح ، وراغم بها مبادئ الشرف والعدالة ، وجعل بقاءها لقطع ما أمر الله به أن يوصل والإفساد فى الأرض . . .

وقد كان ليعقوب أبناء كثيرون ، فهل كان هؤلاء الأبناء نماذج صالحة للخلق العالى والمسلك النزيه ؟ كلا ، فقد ارتكب أبناء يعقوب هؤلاء – فى حياة والدهم – أعمالا شائنة من خطف واحتيال وكذب ! وتزايد أولاد يعقوب وأحفاده ، أى بنو إسرائيل ، فهل دلت سيرتهم مع امتداد الزمن على معرفة لله ، ووفاء بحقه ؟

كلا . . . إن سيرتهم حفلت بالشرور ، وطفحت بالآثام .

والغريب أنهم مع هذه الأفعال المعيبة كانوا يتشبثون بدعوى أنهم شعب مختار ، وأنهم من نسل نبى قديم . . ! ! وما يفيد النسب أحدًا قط ، وقد قال الله فى أبناء نوح وإبراهيم : (فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)[1] . وأجاب إبراهيم حين طلب بقاء الرياسة الدينية فى عقبه ، بأن هذه الرياسة لا تخضع لقانون الوراثة : (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً . قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِى ، قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ)[2]

---

(١) سورة الحديد : ٢٦ .

(٢) سورة البقرة : ١٢٤ .

إن الله لا يقدم أحدًا من خلقه إلَّا بما يقدم هو لنفسه من خير وبر ، لا قيمة عند الله لأنساب ولا ألوان . . .

وبنو إسرائيل الموجودون الآن – لو صح أنهم بنوه فعلا وهذا ما لا يصح – ما يجديهم فتيلا أن يلتصقوا بأب كبير ، وهم فى عصرنا هذا جسر هائل للمظالم والمتاعب ، بل هم صانعو أفدح ما تعانيه الإنسانية من اضطراب وفوضى .

إن الله قطع الصلة الأبوية الوطيدة بين نوح وابنه ، وحكم بإغراق الولد المنحرف ، وعندما قال نوح : (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)[1]!

إن الصلة مقطوعة اليوم كل القطع بين الدولة المسماة إسرائيل ، وبين نبى الله يعقوب الملقب بإسرائيل .

لا صلة الدم مُسلَّمة ، ولا صلة العمل موجودة . إننا بإزاء عصابات من القتلة والمعتدين ، جمعتهم من كل مكان مزاعم ومطامع ، وساندهم المتاجرون بمصاير الشعوب . . .

وعندما تتقدم الشعوب المحروبة (سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)[2] .

---

(١) سورة هود : ٤٥ و٤٦ .

(٢) سورة الشعراء : ١٢٧ .

الوحدة الإنسانية

الحمد لله ، الواسع فضله ، الشامل عدله ، السابغ إحسانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، خلق الإنسان من سلالة من طين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، واستحفظه على الدين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الداعى إلى الهدى واليقين ، والمبعوث رحمة للعالمين ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ؛ فيقول الله سبحانه فى كتابه الكريم : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُما رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)[1] .

أيها الناس : يتوجه الله سبحانه فى هذه الآية بالخطاب إلى (الناس) ، الناس جميعاً ، أبيضهم وأسودهم ، من لدن كانوا إلى يوم القيامة ، على أية بقعة فى الأرض أقاموا ، وهو يذكرهم بأنه خلقهم من أب واحد وأم واحدة : ذكر وأنثى ، وأنهم لا ينبغى أن ينسوا هذه الحقيقة الأولى فى وجودهم على الأرض ، مهما تعددت قبائلهم ، وتكاثرت شعوبهم ، فإن حكمة الله من وراء هذا التكاثر أن يتداعى الناس بعضهم إلى بعض ، فيتعارفوا ، ويتآلفوا ، دون أن يترفع إنسان على إنسان ، أو يستعبد إنسان إنساناً ، بسبب اللون ، أو الحسب ، أو القوة ، أو الغنى ، فهذه الاعتبارات كلها لا تفضل أحدا على أحد ، ولا تزيد من وزن صاحبها عند الله أبدًا ، وإنما يتفاضل الناس فى

---

(١) سورة النساء : ١ .

ميزان الله عز وجل بالتقوى والعمل الصالح .

وأجمل ما فى هذا الخطاب الربانى أنه متوجه إلى جميع الناس ، وقد كانوا على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فريقين : مؤمنين أتباع محمد ، وكافرين أتباع الأهواء أو الأديان الأخرى ، أينما كانوا . ولو كان مقصودًا به المسلمون وحدهم لجاء الخطاب موجهًا إلى (الذين آمنوا) ، كما هو الشأن فى آيات كثيرة ، ولكن لهذا الشمول حكمة ، تتجلى فى أن المساواة التى رفع الإسلام لواءها ليست تشريعاً خاصًا للمسلمين وحدهم ، أو للمجتمع الإسلامى وحده ، ولكنها تشريع عام لجميع الناس .

ليس هذا أيها المسلمون غريبًا عن روح هذا الدين ، بل هو كامن فى الأسس التى قام عليها بناؤه . وأول هذه الأسس أن إله المسلمين هو إله العالمين ، تعم رحمته جميع الخلائق ، دون أن يستأثر بها قوم محمد من دون الأقوام . وذلك بعكس اليهود ، الذين جعلوا رحمة الله حكرًا على شعبهم ، وجعلوا الإله محدود الألوهية ، مقصورًا على قومهم ، وليس من حق أى شعب آخر أن يؤمن به ، أو ينتمى إلى دينه .

لقد جاء الإسلام ليحطم هذه الأنانية اليهودية ، فكانت فاتحة القرآن إعلانًا لهذه الحقيقة العالمية ، ولتلك الوحدة الإنسانية : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[1] - يقرؤها المسلم فى كل صلاة ، ويرددها فى كل لحظة ، فهو رب العالمين جميعًا ، لا رب المسلمين وحدهم . وصدق الله العظيم : (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا ، وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)[2].

فالأساس الأول الذى قامت عليه عقيدة المسلمين هو أن الله جل شأنه إله العالمين .

---

(١) فاتحة الكتاب : ٢ .

(٢) سورة الأنعام : ١٦٤ .

والأساس الثانى فى هذه العقيدة هو عموم الرسالة المحمدية ، ويتأكد هذا العموم من ناحيتين : أولاهما : أن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم مصدقة لما سبقها من الشرائع السماوية ، ومكملة لها أيضًا ، فالإيمان بها يستلزم الإيمان بجميع الشرائع المنزلة ، السابقة عليها ، بحيث لا يقبل إيمان المسلم إلا إذا أقر بجميع النبوات التى ورد ذكرها فى القرآن ، والتى قال الله فى شأنها : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِن الْكِتَابِ ، وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ)[1] بعد أن ذكر أمر التوراة والإنجيل .

ولقد قرر القرآن أن بعض أحكامه قد ورد فى الكتب السابقة عليه ، وإن كان قد زاد عليها أحكامًا أخرى ، لأن شريعته مكملة للشرائع الماضية : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)[2] ، وهنا نجد صورة من التكامل الذى أراده الله بين رسالات الأنبياء ، منذ نوح ، إلى محمد ، عليهم جميعًا الصلاة والسلام . هذا التكامل الذى أكده القرآن فى مواضع كثيرة منه يؤكد عالمية رسالته ، كما يرسم لنا صورة الوحدة الإنسانية التى حاول أن يقرها بين بنى الإنسان . هذا من ناحية .

والناحية الثانية : أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هى خاتمة رسالات السماء إلى البشر ، فهى الكلمة الأخيرة التى وجهها الله سبحانه إلى الإنس والجن ، فى كل مكان ، إلى أن يقوم الناس لرب العالمين ، ومن الحكمة أن تكون الكلمة الأخيرة شاملة لكل أمر أراده الله ، ولكل حكم قدره : (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)[3] . وهكذا كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم رباطًا يجمع شمل البشرية ، ورحمة تفيض على أجيال

(١) سورة المائدة : ٤٨ . (٢) سورة الشورى : ١٣ . (٣) سورة النساء : ١٦٥ .

الإنسانية : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[١] ، لقد أرسله رب العالمين رحمة للعالمين .

وهذه إحدى آيات العقيدة الإنسانية ، فى الدعوة الإسلامية .

فعقيدة المسلم لا تبدأ يوم ولد ، ولا يوم عرف أن محمداً نبيه ، وإنما هى تمتد فى أعماق التاريخ لتؤمن بأول نبى حتى آخر نبى ، ولتجعل من جميع الأنبياء وحدة ، يتمثل فيها كفاح الإنسانية ، من أجل الحق والخير ، وتتجلى فيها رحمة الله المرسلة إلى العالمين .

أيها الناس : من أجل هذا وجدنا نبينا صلى الله عليه وسلم يقف ذلك الموقف العظيم فى حجة الوداع ، وهو الموقف الذى أعلن فيه أسمى مبادئ الحرية والمساواة : «يَاأَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ رَبَّكم واحدٌ ، وإن أباكم واحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْل لعربِيٍّ على عجمِيٍّ ، ولا لعجمى على عربِيٍّ ، ولا لأَحْمر على أَسْود ، ولا لأَسْودَ على أَحْمر إِلَّا بالتَّقْوى ، إِنَّ أَكْرمكُمْ عند الله أَتقاكم ، أَلا هل بلَّغْتُ ؟ . . . قَالُوا : بلى يا رسُول الله ، قال : فَلْيبلغ الشَّاهِدُ الغَائِب »[٢].

كان ذلك من النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن تفتح على المسلمين أوطان السود ، أو الحمر ، أو العجم ، وقبل أن تظهر فى المجتمع نعرات الفخر بالأجناس أو الألوان ، إذ أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يعالج مشكلة قائمة ، ليحسم الخلاف حولها ، وإنما كان يسن للإنسانية فى هذا الموقف العظيم مبادئ العدل الإنسانى ، ويضع الأسس القويمة لحل ما سوف يواجه الإنسانية فى مستقبل أيامها من مشكلات ومآس .

وكأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يُشهد ذلكم الجيل من الصحابة

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

(٢) رواه البيهقى .

رضوان الله عليهم ، على أنه بلغ الرسالة ، ثم هو يحملهم أمانة التبليغ لمن لم يشهد ، وهى أمانة ماضية فى أعناق المسلمين إلى يوم القيامة ، ليعرف السود من بنى آدم أن البيض من إخوتهم ليسوا فى شرعة الحق بأفضل منهم ، فالرب واحد ، والأب واحد ، وقد أعلنت المساواة الكاملة بين الأجناس على لسان خاتم النبيين ، فى اليوم الذى اكتمل فيه الدين ، ونزل قوله تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)[1].

أيها الناس : بحسبكم أن تعودوا إلى تعاليم دينكم لتعرفوا الأحكام التى أقام عليها بناء الوحدة الإنسانية ، بصرف النظر عن أى اعتبار ، انظروا مثلا فى قوله تعالى : (لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ)[2] ـ ما أروعها لمسةً إنسانية فى هذا التشريع ، الذى لم يجعل من اختلاف الدين مانعًا من التواصل والتراحم ، وإقامة العدل ، حتى ينالوا أحيانًا نصيبًا من الزكاة الإسلامية ، فعدالة الله يتفيأ ظلالها المسلم وغير المسلم : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) .

وانظروا أيضًا إلى قوله تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)[3].

فالموقف هنا موقف إنسانى يتمثل فى إجارة المشرك وإنقاذه من خطر يتهدده ، فى حياته أو ماله أو عرضه ، وهذه الأمور عند الخطر تتقدم على ما عداها ، فضرورة الأمن قبل ضرورة الاستجابة للدعوة ، وليس على المذعور الخائف

(١) سورة المائدة : ٣ . (٢) سورة الممتحنة : ٨ و ٩ . (٣) سورة التوبة : ٦ .

أن يسمع كلام الله ، لأنه لا يستطيع ، ومتى انتفت القدرة انتفى التكليف .

وبحسبنا كذلك أن نرجع إلى مسلك الخلفاء الراشدين مع غير المسلمين لنرى روعة الجانب الإنسانى فى حياتهم ، هذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشكو إليه مصرى من ظلم ابن عمرو بن العاص له ، فيرسل إلى عمرو أن يشخص مع ولده إلى المدينة ، وهناك يقتص المصرى من ظالمه بالسوط ، ثم يقول عمر بن الخطاب لعمرو قولته المشهورة : «مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاسَ وقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَارًا » .

بل إن إنسانية عمر لم تقتصر على (الناس) ، وإنما بلغت (الحيوان) الأعجم ، وهو القائل فيما أثر عنه : «لَوْ عَثَر جَمَلٌ بالْعِرَاقِ فَمَاتَ لَحَسِبْتُ أَنَّ آلَ الْخَطَّابِ مَسْئُولُونَ عَنْهُ أَمَامَ اللهِ» .

أين هذا أيها المسلمون من المبادئ الحديثة ، التى تزعم أنها تسن للبشرية طريق الديمقراطية والمساواة الإنسانية ، على حين أنها تمارس ألعن أشكال التفرقة العنصرية ؟ فباسم الحضارة الحديثة يستذل الأبيض رقاب السود فى قلب أوربا ، وفى قلب أمريكا . وباسم الحضارة الحديثة العنصرية رحل الرجل الأبيض إلى إفريقيا والشرق العربى ، ليقيم فى أرضهما دولا على أشلاء الملونين ، فهو يستولى باسم الحضارة على كل خيرات البلاد ، ويشرد أصحابها الأصليين ، وينكر عليهم حقهم فى الحياة ، على هذا الأساس قامت فى الشرق العربى دولة إسرائيل العنصرية ، وقامت فى إفريقيا السوداء دولتا جنوب إفريقيا ، وروديسيا .

لقد رفعوا شعارات الحرية والمساواة والإخاء ، ولكنهم اتخذوها ستاراً يحجب رذائل حضارتهم وفضائحها ، ويحمى جشعها وأنانيتها . وقالوا : إنهم يدعون إلى وحدة الإنسانية ، وهم لم يعرفوا الإنسانية إلا فيما بينهم ،

ولم يعرفوا قيمها وأخلاقها إلا على أرضهم ، فأما إذا جاءوا إلى بلاد الملونين فإن شريعتهم هى الهمجية والعنصرية .

أيها الناس : من أجل ما عرف به دينكم السمح من دعوة إلى خير البشر ، دخل الناس فيه أفواجًا ، ووجدنا أفرادًا مسلمين يرحلون إلى بلاد نائية وسط المحيط ، مثل أندونيسيا ، فيتحول سكانها ، وهم عشرات الملايين ، إلى الإسلام ، لأنهم لمسوا فيه وفى دعاته سماحة النفس ، وإنسانية المشاعر ، وعدالة المعاملة ، فأقبلوا ينهلون من وِرده الصافى ، ويندمجون فى وحدته الإنسانية الشاملة ، التى لا تفضل العربى على العجمى ، ولا تفرض جنساً معيناً على قمة السلطة ، ليتحكم فى رقاب العباد .

دينكم أيها المسلمون هو الرسالة الإلٰهية الأخيرة إلى الإنسانية ، هو الرسالة التى لخصت كل ما سبقها من الرسائل ، ثم زادت عليها لخير الإنسانية عدلا ونظامًا ، وبرًّا وتوحيدًا . فاحملوا نوره إلى الناس ، وادعوهم إلى هداه ، وتحصنوا به فى مواجهة المبادئ الإلحادية شرقية وغربية ، فالله نور السموات والأرض ، يهدى الله لنوره من يشاءُ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مَثَلِى وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ من قَبْلِى كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ ، وأَجْمَلَهُ ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ ، ويَقُولُونَ : هَلَّا وضعتْ هذِهِ اللَّبِنَةَ ، قال : فَأَنَا هذِهِ اللَّبِنَةُ ، وأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّين »[1].

---

(١) رواه البخارى .

قيمة الشباب

الحمد لله رب العالمين، نحمده ونستعينه ونستهديه ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، ونثني عليه الخير كله ، ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ؛ أمرنا بأن نتعهد أسرنا بالرعاية ، وأن نتعهدهم بأدب القرآن الكريم ، قال تعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)[1].

ونَشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله ، ذو القوة والاحتمال والصبر ، سار بأُمته من نصر إلى نصر ، حتى تحققت كلمة الله ، وارتفعت راية الإسلام خفاقة ، تعلن القوة والعزة والمجد ، تحقيقًا لقوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ).

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، الذين آمنوا بالله ، وعملوا بكتابه ، وتمسكوا بسنة رسوله (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) .

أما بعد؛ فيا عباد الله :

لقد اتجه الإسلام إلى بناءِ مجتمع سليم من كل الآفات ، أساسه الترابط والتضافر ، وعماده القوة وتحقيق الأمجاد الرفيعة ، وهو بذلك يهدف إلى تحقيق المصحة العامَّة للإنسانية كلها .

والمجتمع ما هو إلا مجموعة، من الأُسر المنضم بعضُها إلى بعض ،

(١) سورة طه : ١٣٢ .

فالأسرة هى الخلية الأولى للمجتمع ، ولهذا احتفى الإسلام بها . وعمل على تماسكها وإعزازها ، والبيت فى تقديره مثابة وسكن ، فى ظله تلتقى النفوس على المودة والرحمة ، والتعاطف والمحبة ، ومن سماته تأخذ الناشئة طابعها وسلوكها :

وينشأ ناشئ الفتيان فينا   على ما كان عوده أبوه

والشباب فى الأسرة روحها المتوثب ، ودمها المتدفق ، ومظهر حيويتها ونشاطها ، وهو فى المجتمع قلبه النابض ، وعزمه القوى . وفى كل ثورة عامل نجاح ، وفى كل معركة نماذج فداء ، على أكتافهم أثقال المسئولية ، وبسواعدهم تقوم المشاريع ، وبأفكارهم تنتشر الحضارات ، وبقواهم توطد المثل الإنسانية والقيم الأخلاقية ، وبطموحهم تتأكد الحرية ، ويحافظ على الاستقلال ، ويرتفع شأن الأمة فى العالمين : (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)[1].

إن إيمان الشباب قوة فعالة تصنع الأعاجيب ، وتحقق أهدافًا يعجز عن بلوغها الضعاف المهازيل ، وتطهر الأرض مما ران عليها من أدناس وأرجاس ، وتنشر النور والطهر والخير ، إن قوة الشباب هى الطاقة الجبارة الممتلئة بالحيوية والنشاط . هذه القوة تستطيع أن تقرر مصاير الشعوب فترفعها إذا شاءت إلى أعلى درجات المجد ، وتدفعها إلى طليعة الأمم الراقية ، وعلى نشاطها يتوقف مستقبل الإنسانية وحاضرها . وحينما نرى أمة أخذت بنصيب وافر من الرقى والحضارة ، ودعمت كرامتها وحريتها ، نجد وراء هذا التقدم فتيةً آمنوا بربهم وبحقهم فى الحياة الحرة العزيزة ، فعزفوا عن مباهج الدنيا

---

(١) سوره الأحزاب : ٢٣ .

ورفاهيتها ، وعقدوا العزم على مواصلة الكفاح حتى يبلغوا أعز الآمال ، وكان شأنهم شأن ذلك الصحابى الجليل عمير بن الحمام الأنصارى ، الذى اشترك فى معركة من معارك الإسلام تصدَّتْ لقوى الشرك والبغى ، وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : « قُومُوا إلى جَنَّةٍ عَرْضُها السَّمَواتُ والأَرْضُ » ، فقال ذلك الصحابى يا رسول الله ، جنة عرضها السموات والأرض ! ! قال : نعم ، قال : بَخٍ بَخٍ ، قال رسول الله : وما يحملك على قول بَخٍ بَخٍ ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاءَ أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها . فأخرج تمرات من قَرْنِهِ فجعل يَأْكُلُ منهن ، ثم قال : لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكل تَمَراتِى هَذِهِ إنَّهَا لحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ ، فرمى ما كان معه من التمر ، ثم دخل المعركة حاملًا سلاحه بيمينه ، يهوى به على رقابِ المشركين وهو يصيح :

رَكْضًا إلى الله بِغَيْرِ زَادِ إلَّا التُّقَى وَعَمل الْمَعَادِ
والصَّبْرُ فِى اللهِ على الْجِهَادِ وَكُلُّ زادٍ عرضةُ النَّفَادِ
غَيْرَ التقى والبرِّ والرَّشَادِ

فما زال حتى قتل . . شهيدًا ، تاركًا للأجيال بعده مثلا أعلى فى التضحية بالنفس ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود ، وضمن لنفسه حياة طيبة خالدة فى جوار اللهِ : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ ، عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

(١) سورة آل عمران : ١٦٩ و ١٧٠ و ١٧١ و ١٧٢ .

أيها المسلمون : إن الشباب فى كل أمة هو الذى يعطى القيادات تجددًا دائمًا ، ويؤمِّن استمرار الأعمال البناءة ، بالعلم والعمل فى جميع المجالات . وبهذا كان على الشباب مسئولية ضخمة نحو مجتمعهم ، وقد بين الله تعالى جوانب مما قام به الشباب عبر التاريخ ، اقترابًا من المثل العليا وتحقيقًا لها وتجسيدًا للثورة المناضلة فى مجالات العمل على اتساعها ، فأبو الأنبياء يتفتح قلبه وعقله على الإيمان وهو فى شبابه ، فينكر عبادة النجوم والقمر والشمس ، لأن عبادة هذه المخلوقات المتغيرة لا تليق بعقل الإنسان الذى كرمه الله بنعمة التمييز والإرادة : (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ، قَالَ : هَذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ : لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ : هَذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ : لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ : هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ : يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[1] .

ويوسف عليه السلام كان شابًّا حين تعرض للتجارب الشديدة التى مرت به ، والتى خرج منها نقيًّا طاهرًا لينقذ مصر من أخطار المجاعة ، وحافظ على نقاء شبابه وعفافه ومروءته ، وادخر هذا الشباب للمصلحة العامة حينما استدعاه حاكم مصر ليضبط ميزانها الاقتصادى ، وقال له يوسف : (اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ)[2] ، ويقص علينا القرآن الكريم أمر مجموعة من الشباب فى سورة الكهف ، آمنوا بربهم ، ولم يستهوهم ما كان عليه قومهم من كفر وضلال ، ولم ينغمسوا فى لهو الحياة ومباهجها ، ووصفهم الله تعالى بقوله : (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ، وَرَبَطْنَا عَلَى

---

(١) سورة الأنعام : ٧٦ و٧٧ و٧٨ و٨٩ . (٢) يوسف : ٥٥ .

قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا ، فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)[1] ، وعاش هذا النفر من الشباب فى التاريخ نموذجًا للإيمان بدون أن تُعرف أسماؤهم ، فكانوا بذلك نماذج رفيعة من البطولات المجهولة التى مجدها القرآن الكريم ، والتى جعلها مثلا للشباب فى كل زمان ، وما ينبغى أن يكونوا عليه من الترفع عن الدنايا ، والتطلع إلى أرفع الأمجاد ، واحترام إنسانيتهم بعدم الخضوع لقوى البطش والسيطرة والطغيان . . . ويسجل القرآن نموذجًا لموسى عليه السلام وهو فى شبابه ، حيث كان يستخدم هذا الشباب فى مساعدة المستضعفين ، وفى عمل الخير والمعروف ، فلما وجد الناس يستقون من بئر فى مدين ، ووجد امرأتين لا تستطيعان مزاحمة الجماهير لتسقيا ما كان معهما من إبل وغنم - لم يقف مكتوف اليدين ، قائلا فى نفسه : لماذا أرهق ساعدى بالعمل واستخراج الماء ، بل لقد عمل بيده وسقى لهما ، وسجل القرآن الكريم هذا الموقف الرائع فى قوله : (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ : مَا خَطْبُكُمَا ؟ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ، فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)[2] . . .

وكانت حياة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى شبابه مثلا أعلى فى مكارم الأخلاق ، حتى لقب بالأمين قبل أن يبعث بالرسالة ، ولم يشأ أن يعيش وهو شابٌّ عالةً على أسرته ؛ بل عمل فى رعى الغنم ، وعمل فى التجارة مع عمه أبى طالب ، وتاجر فى مال السيدة خديجة ، ورأت فيه المثل الرائع للشاب المخلص الأمين وارتضته زوجًا لها ، ولما نبئ بالرسالة كانت

(١) سورة الكهف : ١٣ و ١٤ . (٢) سورة القصص : ٢٣ و ٢٤ .

أول من آمن به . وحينما قال لها : أىْ خديجةُ ما لى ؟ وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسى ، فقالت له : كلا . أبشرْ فوالله لا يُخْزِيك اللهُ أبدًا ، إنك لتَصِلُ الرّحم ، وتصْدُقُ الْحَدِيث ، وتحمل الْكَلَّ ، وتُكسِب الْمَعْدُوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . وسارت حياته كلها صورة من أخلاق شبابه ، فضائل سامقة ، ومكارم دقيقة ، ومناقب سمحة ، ولقد وصفه ربه بقوله : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[1] . ومن أجل هذا ربى هذا الرسول الكريم الشباب على موائد الإيمان ، وعنى بهم أيما عناية ، وأسدى ذلك التوجيه الرشيد إلى كل فرد منهم فى شخص ابن عمه عبد الله بن عباس حين قال له : «يا غلام ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تِجاهكَ ، إذا سَأَلْتَ فاسأل الله ، وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بالله . واعْلَمْ أن الأُمةَ لو اجْتَمَعَتْ على أن يَنْفَعُوكَ بِشَىءٍ لم يَنْفَعُوكَ إلَّا بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وإنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَضُرُّوك إلَّا بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ»[2] . بهذا التوجيه يدعو رسول الله الشباب إلى أن يحفظواه الله ليحفظهم ، وحفظ الله يكون بالاستقامة والتقوى ، ولهذا عدَّ رسول الله من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الشَّابّ الَّذِى نَشَأَ فِى عِبَادَةِ رَبِّه ... فهو جدير بأن يكون فى رعاية الله وفى كنفه ، (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) ..

هذه نتائج مرتقبة لشبابنا المؤمن بربه ، المستقيم على جادته ، المستحق لبشراه فى حديثه القدسى : «إنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظَمَتِى وَلَمْ يَسْتَطِلْ عَلَى خَلْقِى ، ولَمْ يَبِتْ مُصِرًّا عَلَى مَعْصِيَتِى ، وقَطَعَ النَّهَارَ

---

(١) سورة ن : ٤ .

(٢) رواه مسلم .

فى ذِكْرِى ، ورَحِمَ الْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ والْأَرْمَلَةَ ورَحِمَ الْمُصَابَ »[١].

إن الأُمة فى ماضيها الغابر ، وحاضرها الثائر ، وضعت ثقتها الغالية فى الشباب ، وأسندت إليهم من الأعمال أخطرها ، ومن القيادات أعلاها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم أعطى راية القيادة لعلى بن أبى طالب يوم بدر ، وكان فى سن الشباب ، وفى هذه المعركة حمل الغلمان السلاح متصدين لجبابرة الكفر ، ورءوس الشرك . قال عبد الرحمن بن عوف : إنى لفى الصف يوم بدر ، إذ التفت فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن ، فكأنى لم آمن بمكانهما ، إذ قال لى أحدهما سرًّا من صاحبه ، يا عم أرنى أبا جهل ، فقلت ، يا ابن أخى ، ما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه ! ! وقال لى الآخر سرًّا من صاحبه مثلَه ، قال : فما سرنى أنى بين رجلين مكانهما ، فأشرت لهما إليه ، فشدًّا عليه مثل الصقرين فضرباه حتى خر صريعاً على الأرض بين الحياة والموت لتستريح الأرض من شره إلى الأبد . . . وقد استشهد البطلان الشابان فى الوقعة ، ووقف رسول الله على مصرعهما ، يدعو لهما ويذكر صنيعهما . . .

كما أعطى الرسول راية القيادة لزيد بن ثابت فى تبوك ، وهو فى العشرين من عمره ، وأعطاها لجعفر بن أبى طالب فى مؤتة وهو فى سن الثالثة والثلاثين ، وأعطاها لأسامة بن زيد وهو فى السابعة عشرة من عمره . . وإن ثورتنا المكافحة ، التى أعادت لأمتنا العربية وجهها المشرق بالعزة والحرية والكرامة ، قامت على أكتاف شباب آمنوا بربهم ، فكلأهم برعايته ، ونرجو أن تكون لهم من السلف الصالح ، أسوة حسنة ، وأن يتخذوا من الصحابة الشباب أعظم القدوة ، لقد عقدوا العزم على أن يكافحوا حتى آخر قطرة من دمائهم ،

---

(١) رواه البزار .

من أجل المحافظة على مكاسبنا الوطنية ، ومن أجل القضاء على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان .

إن الأمة العربية تعلق آمالها فى أعناق شبابها البُسَلاء ، وتعتمد على سواعدهم فى تذليل العوائق التى وضعها الاستعمار فى طريق تقدمها ، والشباب يدرك تمام الإدراك قوله تعالى : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[1] .

فاتقوا الله عباد الله . وتَعَهدوا شبابنا بالرعاية ، وكونوا قدوة طيبة لهم فى التحلى بمكارم الأخلاق ، وفى التضحية وإنكار الذات ، حتى يكتب الله لأوطاننا السعادة والعزة والتوفيق .

---

(١) سورة التوبة : ١٤ و ١٥ .

المال فى نظر الإسلام

الحمد لله مالك الملك ، وملك الملوك ، إليه يرجع الأمر كله ، وعليه فليتوكل المتوكلون ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يشاءُ ، وينْزِعُ الْمُلْكَ ممَّنْ يشَاءُ ، ويُعِزُّ من يشَاءُ ، ويُذِلُّ من يَشَاءُ ، بِيدِهِ الخير ، وهو على كل شيءٍ قديرٌ ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، بلغ رسالة ربه ، وأقام أمر دينه ، وتركنا على المحجة البيضاء . صلى الله وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه والتابعين .

أما بعد : فيقول الله سبحانه فى كتابه الكريم : (آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالِذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)[1] .

أيها المسلمون : هذه آية من كتاب ربكم يطلب إليكم فيها أن تؤمنوا بالله ورسوله ، وأن تنفقوا مما بين أيديكم من نعمه ، ثم يعدكم إذا أنتم استجبتم لأمره أن يضاعف لكم الأجر ، وأن يجزل لكم الثواب .

وكثيرون منا يقرءون الآية ويحفظونها ، وتتردد على أسماعهم مرات ومرات ، ومع ذلك لا يحسون بمضمونها الذى أودعه الله فى كلماتها .

فالله جل شأنه يطلب من الناس أن يؤمنوا ، وكثيرًا ما نجد أوامر بالإيمان فى آيات القرآن ، لكن المهم فى هذه الآية أنه يقرن الأمر بالإيمان بالأمر بالإنفاق ، وهو إنفاق لا يقتصر على النصاب المحدد فى الزكاة ، بل يتجاوزه إلى أن يكون المؤمن سخيًّا كلما طلب إليه البذل ، ثم يجعل

---

(١) سورة الحديد : ٧ .

الله سبحانه هذا الأمر بالإنفاق من مال نحن فيه مستخلفون ، وهو تصوير عجيب لعلاقتنا بما بين أيدينا ، فنحن جميعاً نعتقد أن بيوتنا ملك لنا ، وأن ما تحتويه هذه البيوت من ذهب وفضة ومتاع هو أيضًا ملك لنا ، لا ينازعنا فيه أحد ، نحن مستعدون لأن نموت دفاعًا عما نملك ، ومع ذلك فها هو ذا القرآن يقول لنا : (جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) . . . فالقرآن يؤكد أننا فى الحقيقة لا نملك ما بين أيدينا ، وإنما هو أمانة نحن مستخلفون فيها ، لتدبيرها وإدارة شئونها ، وإنفاذ أمر الله فيها .

وإذا لم يكن مالُنا ملكًا لنا . . . فهل كان ملكًا لآبائنا أو أسلافنا ؟ كلا . . . فقد كانوا هم أيضًا مستخلفين فيه ، لأن الآية موجهة إليهم ، كما أنها موجهة إلينا ، وقد رأينا بأعيننا أنهم قد استودعوا هذا المال حينًا من الزمن ، ثم تركوه ، فلم يأخذوا معهم قرشًا ولا فلسًا ، فالله قد استخلفهم فى المال إلى حين ، ثم أقالهم من وظيفة الخلافة عليه لنتولى نحن هذه الوظيفة من بعدهم ، وذلك أيضًا إلى حين ، ثم نرحل نحن عن الدنيا مخلفين ما استودعنا لأبنائنا وحفدتنا ، ويتركونه هم كذلك لأبنائهم . . . وهكذا . . . إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ويومئذ يعلو نداءُ الحق على رؤوس المخلوقات : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) ؟ فلا يجيب أحد ، ويجيب النداء : (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)[1].

تلكم هى الحقيقة يا معشر المسلمين ، فالإسلام يحدد بكل صراحة علاقتنا بالمال ، فينفى أن تكون على هيئة ملكية مطلقة ، لأن هذه الملكية المطلقة تحكمها الأنانية ، ويقودها الجشع ، ويقترن بها – على الأقل –

---

(١) سورة غافر : ١٦ و ١٧ .

عدم الثقة بالله ، وضعف الاستعداد للقائه ، فالمالك الذى لا يحس بأن الله معه فى ماله لا يقبل أن يشاركه أحد ملكيته ، ويحاول أن يجمع المال ولو من غير حله ، وهو لا يؤدى حق الله فى ماله ، لأنه لا يثق بالله ، ولا يتذكر النهاية المحتومة ، ومثل هذا المالك يؤدى به غناه إلى الفساد والطغيان : (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ، إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)[1] ، (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[2].

وطغيان الإحساس بالملكية يؤدى إلى الظلم ، وتجاوز أحكام الله فى تصريف المال ، وهذا أمر خطير ؛ لأن صاحبه أشبه بمن ينازع الله عز وجل سلطانه على الأموال والأنفس والثمرات ، ومن أجل هذا رسم الإسلام صورة علاقتنا بالمال فجعلها خلافة عن الله ، وجعله وديعة بين أيدينا ، ووسيلة إلى رضوان الله . ونتيجة هذه الخلافة عظيمة فى سلوك المؤمن ، فهو إن بقى له المال حمد الله الذى استخلفه ووظفه فيه ، وإن أصابته مصيبة فى ماله فضاع أو نقص لم يحزن على شىء فاته ، لأن المال مال الله ، والكون ملك لله : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ)[3].

أيها المسلمون : وأمر آخر يتعلق بهذه الآية الكريمة ينبغى أن تذكروه دائمًا ، هو أنها من أول الأسس التى نزل بها الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهى ليست مجرد تشريع ينظم قواعد المعاملة بين المسلمين أو حماية أموالهم وممتلكاتهم ، وقد نزلت هذه التشريعات بعد الهجرة ، بالمدينة ،

---

(١) سورة العلق : ٦ و ٧ و ٨ .
(٢) سورة الحشر : ٩ .
(٣) سورة الحديد : ٢٢ و ٢٣ .

ولكنها دستور إلهى اختاره الله لأُمة محمد ، وواجه به الرسول أمته منذ بدأ يدعوهم إلى دعوته ، فى الخبر أنها نزلت قبل إسلام عمر بن الخطاب ، وقد أسلم عمر فى السنة السادسة من البعثة ، ولم يكن عدد المسلمين قد تجاوز أربعين رجلا ، كانوا يستخفون بالإسلام فى شعاب مكة .

وفى الخبر أيضًا أن عمر رضى الله عنه قرأها فى بيت أخته فاطمة قبل أن يسلم فقال : (واللهِ لا يَنْبَغِى لِمَنْ يَقُولُ هَذَا أَن يُعْبَدَ مَعَهُ غَيْرُه) ؛ ثم أسلم رضوان الله عليه .

فالرسول صلى الله عليه وسلم قد واجه منذ الخطوات الأُولى فى الدعوة أنانية الناس ، وحرصهم على التملك الجشع ، والاستئثار بالطيبات من دون الآخرين ، ودعاهم إلى السخاء بأموالهم ، إنفاقًا وبذلا ، فإذا أنفقوا فى سبيل الله ، وطابت نفوسهم بهذه النفقة كان لهم أن ينتظروا من الله مضاعفة الأجر ، أليسوا موظفين فى مال الله ؟ أليسوا قد أدوا واجبهم كاملا ؟ . . . إذن فقد استحقوا ما رتب الله لهم من رواتب وأجور مضاعفة : (فَالَّذِينَ آمنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)[1] .

كان ذلك الاتجاه فى تحديد سيطرة الإنسان على المال من أول يوم فى عمر الدعوة ، من قبل أن تعرف البشرية شيئًا عن تأثير رأس المال فى الحكم ، وفى مصاير الشعوب ، وفى استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، وكان اتجاه الإسلام صريحًا فى توظيف المال لخدمة الأُمة ورعاية مصالحها ، وتحريم استعماله أداة لاستعباد الناس ، أو احتكاره لصالح مالكيه وحدهم . وقد وضع الإسلام تشريعات تضمن تحقيق هذا الهدف :

---

(١) سورة الحديد : ٧ .

أولها : أن يكون مصدر المال كسبًا حلالا ليس فيه سرقة ولا اختلاس ولا شبهة ، قال تعالى : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)[1]. وقال صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وإِنَّ اللهَ أَمَرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : (يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أَشْعث أَغْبر يمُدُّ يديهِ إلى السَّماء يقول : يا ربِّ ، ومطْعمُهُ حرامٌ ، ومَشْرَبه حرامٌ ، وملبَسه حرامٌ ، وغُذِي بالْحرام فَأَنَّى يُسْتجاب لِذَلِك»[2].

ومن طيب المال دفع زكاته كما أمر الله : (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)[3] .

فإذا توافر للرجل المال الحلال الطيب بارَك الله له فيه ، ولكن بشرط أن يخضع للتشريع .

الثانى : أن يوظف ماله لمصلحة الأُمة ، فقد حرم الإسلام كنز المال ، وأنذر الكانزين بأعنف العقاب ، وأوعدهم بعذاب تتحول فيه أموالهم أدوات جهنمية ، فقال تعالى : (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ، وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ ، وَجُنُوبُهُمْ ، وَظُهُورُهُمْ ، هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)[4] .

وبهذا ضمن الإسلام تسخير كل الأموال لمصلحة الأُمة ، وضمن فى الوقت نفسه ألا تنشأ فى المجتمع الإسلامى طبقة من الأغنياء أصحاب

---

(١) سورة البقرة : ١٦٨ .
(٢) رواه مسلم والترمذى .
(٣) سورة الذاريات : ١٩ و ٢٠ .
(٤) سورة التوبة : ٣٤ و ٣٥ .

الكنوز ، أو أصحاب الاستعلاء والفساد . والكنز والفساد قرينان من قديم : (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)[1] .

وكم فى الدنيا الآن من أمثال قارون ، كنزًا وطغيانًا ، فإن ظنوا أنهم قد ملكوا الدنيا فلقد خسروا الآخرة بما كنزوا ، وبما طغوا ، وصدق الله العظيم : (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)[2].

ومن وظائف المال فى الإسلام إنفاقه فى الجهاد ضد أعداء الله ، وقد اشترى الله منا أنفسنا وأموالنا بثمن غال هو الجنة ، وهو سبحانه مالك أنفسنا وأموالنا ، من قبل الشراء ومن بعده ، رضينا ذلك أو كرهناه ، فكان من بالغ لطفه بالمؤمنين قوله : (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ . . .) ثم قال : (وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[3] .

ومن وظائفه وقت السلم أن يوضع فى مشروعات تعود بالخير على المسلمين ، فتوجد العمل للعاطل ، وتسد الدين عن المدين ، وتبنى المدارس والمستشفيات والمؤسسات لأبناء الشعب ، وذلك كله من بين مصارف الزكاة : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ، وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَفِي

---

(١) سورة القصص: ٧٦ و ٧٧ .
(٢) سورة القصص : ٨٣ .
(٣) سورة التوبة : ١١١ .

الرِّقَابِ ، وَالْغَارِمِينَ ، وَفِى سَبِيلِ اللهِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ)[١].

ومن وظائفه أن يأخذ منه صاحبه ما يلزمه ، لينفقه على عياله ، ويهيئ لهم تربية صالحة ، كما يعطى منه أقرباءه وذوى رحمه ، ويقضى ببعضه حاجات المعسرين : «من نفَّس عن مُسْلِم كُرْبَةً من كُرَب الدُّنْيَا نفَّس الله عنه كربةً من كُرَبِ يوم القيامة ، ومن يسَّرَ على مُعْسِر فى الدُّنْيَا يسر اللهُ عليه فى الدُّنْيَا والآخِرة ، ومن سَتَرَ على مُسْلِم فى الدنيا ستر الله عليه فى الدُّنيا والآخِرَةِ ، واللهُ فى عَوْنِ الْعَبْدِ ما كَانَ الْعَبْدُ فى عَوْنِ أَخِيهِ »[٢].

ومن وظائفه تأمين حاجة الأبناء عند الكبر والمرض والوفاة ، وبحيث لا يحرم وارث من ميراثه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من فَرَّ بِمِيرَاثِ وَارِثِهِ قَطَعَ اللهُ مِيرَاثَهُ مِنَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[٣] .

ولقد بلغ من حرص الإسلام على تهذيب علاقة المسلم بماله أن أمره بألا يتميز بشىء منه دون عبيده ، قال النبى : «هُمْ إِخْوَانُكُمْ ، جعلهم الله تحت أَيْدِيكم ، فَمَنْ جَعَلَ اللهُ أخاه تحت يده فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُل ، وَلْيُلْبِسْه مِمَّا يَلْبَس ، ولا يكلفه من العمل ما يَغْلِبهُ ، فإِنْ كَلَّفَهُ ما يَغْلِبُه فَلْيُعِنْهُ عليه »[٤]. وهذا هو مفهوم قوله تعالى : (وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فى الرِّزْقِ فَمَا الذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ)[٥] .

أيها المسلمون : من أجل هذا كله نستطيع القول بأن الإسلام قد حرر المسلم من العبودية إلا لله ، وحرر المال من أن يكون حكرًا لفرد ، وجعله

---

(١) سورة التوبة : ٦٠ .
(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذى .
(٣) رواه ابن ماجه .
(٤) رواه البخارى .
(٥) سورة النحل : ٧١ .

موجهًا لمصلحة الجماعة ، وهذا هو المعنى الذى فهمه أبو ذر الغفارى رضى الله عنه حين قال : « إنَّ خَلِيلِي عَهِدَ إلىّ : أيُّما ذهب أو فضة أوكِيَ عليه فهو جَمْرٌ على صاحبه ، حتى يُفْرغه فى سبيل الله عز وجَل »[1] وهو إن تطرف فى تطبيقه ، فلم يكن هذا الاتجاه لديه إلى تسخير المال لمصلحة الأُمة إلا تعليماً من النبى لصحابته ، وسلوكًا وجدوه منه ، ونحن نذكر قصة ذلك الأعرابى الجافى الذى جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له : أعطنى يا محمد ، فإنك لا تعطينى من مالك ولا من مال أبيك ، وهم عمر بقتله لهذه الجرأة على رسول الله ، ويمنع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر من إيذائه ، ثم يعطيه حتى يرضى .

لقد كان ذلك من الرسول تطبيقاً رائعاً لمعنى الخلافة عن الله فى المال ، وكان درسًا لقنه أصحابه ، الذين بدأ بهم مجتمع المدينة بعد الهجرة ، فأسسه على الإيثار السخى ، والترفع عن عرض الدنيا ، رغبة فيما عند الله . حتى لحظة وفاته ، عليه الصلاة والسلام ، روى أنه كانت عنده سبعة دنانير فى مرضه الأخير فقال يا عائشة : ابعثى بالذهب إلى علىّ ، ثم أغمى عليه ، وشغل عائشة ما به ، حتى قال ذلك مرارًا ، كل ذلك يغمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشغل عائشة ما به ، فبعث إلى على فتصدق بها[2] ولم يبق فى بيته حين مات شىء .

أيها المسلمون :

لقد فهم أسلافنا حقيقة وجودهم ، كما أراد الإسلام ، وكما علمهم الصادق الأمين ، وأنهم لم يخلقوا إلا ليكونوا عبادًا لمن استخلفهم فى الأرض .

---

(١) رواه أحمد .

(٢) من حديث رواه الطبرى .

فنهضوا بتبعة الخلافة ، وأدوا أمانتها ، ولقد سئل أعرابى ، عنده إبل كثيرة ، لمن هذه الإبل يا أعرابى ؟ . . . فقال : هى لله تعالى عندى . وبهذا الفهم عرفت الدنيا فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أمة ترى المال وسيلة لا غاية ، ومجتمعاً بلا طبقات وبلا امتيازات ، وبلا جريمة ، وبلا نقائض مما يعج به العالم الآن. كانوا أمة ربانية ، سخرت كل ما بين يديها لطاعة ربها ، مرددة مع نبيها قوله صلى الله عليه وسلم : «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ، وأَنْتَ الْآخِر فَلَيْس بعدكَ شَيْءٌ ، وأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْس فَوْقَكَ شَيْءٌ ، وأَنْتَ الْباطِنُ فَلَيْس دُونكَ شيْء ، أَقضِ عنَّا الدَّيْن ، وأَغْنِنَا مِن الْفَقْرِ »[1].

وقال صلى الله عليه وسلم : «لا حَسَدَ إِلَّا فى اثْنَتَيْنِ : رجُلٌ آتَاهُ الله مالًا فسلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِه فِى الْحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً فَهُو يقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا »[2].

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخارى .

كيف يستعيد المسلمون مجدهم ؟

الحمد الله رب العالمين . جعل العزة من صفات المؤمنين فقال : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[1] .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . لا يذل من اعتز به ، ولا يهون من جعل سيادته عنده . ولا يضل من عرف الطريق إليه : (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)[2] وأشهد أن محمدًا رسول الله ، جاء بالدين القيم ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، وشرع لأُمته من النظم ما يكفل لهم – إن تمسكوا بها – سعادة الدنيا ، وعز العقبى .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، الذين كان لهم فى رسول الله أسوة حسنة ، فتخلقوا بأنبل الأخلاق ، واتصفوا بأكرم الصفات ، وعاشوا أعزة فى أوطانهم ، سادة فى بلادهم : (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[3] .

أما بعد ؛ فيا عباد الله :

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى أُمة كانت تتحكم فيها علاقات اجتماعية من شأنها أن تفرق ولا تجمع ، وأن تجعل العصبية فيها غير موجهة للأُمة كلها ، بل للقبيلة وحدها ، فكان العربى يفتخر بقبيلته وبأهله ، ويعتز بالانتساب إليهم أشد الاعتزاز ، ويشعل نار الحرب إذا مست هذه

(١) سورة المنافون : ٨ .
(٢) سورة طه : ١٣٣ .
(٣) سورة البقرة : ٥ .

القبيلة بأدنى أذى ، وفى الوقت نفسه كان يعلن القتال على من يجاوره من القبائل لأتفه الأسباب ، مع ما يربطهما من روابط الأخوة والقومية . . . وفضلا عن ذلك فإن هذه الأمة لم تكن أكثر الأمم عدداً فى دنيا الناس ، ولم تكن أوفرها غنى ، ولا أكثرها علماً وحضارة ، فما الذى حدث حتى جعل هؤلاء الأقلين فى كل شىء سادة الدنيا وأعزتها ، وأصحاب الأمجاد فيها ؟ ما الذى حدث حتى صار عُباد الحجر رواداً للبشر ؟ ما ذا الذى حدث حتى صار رعادة الإبل رعاة حضارة ورقى وعمران ؟ إنه الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وهتف بهم فى قوة : ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[1] .

فأصبح هؤلاء الذين كانوا يعفرون جباههم بالسجود لصنم من خشب أو حجر ، لا يحنون رأسهم لمخلوق ، ولا يخضعون إلا لبارئ السموات والأرض ، ولا يطأطئون رءوسهم إلا للعلىّ جل جلاله . وهم فى سجودهم مبتهلون إليه : سبحان ربى الأعلى . . . وبعد أن كان الواحد منهم يعتز بقبيلته وحدها ، أصبح يعتز باسم الإسلام . ويقول قائلهم فى ذلك :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وتتغير العلاقات الاجتماعية ، من اعتزاز بالأسرة أو القبيلة ، إلى الأخوة الإسلامية والتعاون الوثيق ، والإيثار النبيل ، وإن ما حدث عقب الهجرة ، من مؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لأصدق دليل على هذه الأخوة الصادقة . ويروى البخارى فى ذلك مثلا رائعاً لهذا الخلق الفاضل ، فيقول : «لما قدم المهاجرون المدينة آخى رسول الله بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فقال سعد لعبد الرحمن : إنى أكثر الأنصار مالا فأقسم مالى نصفين ،

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٢ .

ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك ، أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، قال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك - أين سوقكم ؟! فدلوه على سوق بنى قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغدو»[1] . . . إن مثل هذا الصنيع جدير بأن يمدحه الله ويثنى عليه فيقول تعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[2] .

والتوجيه النبوى الشريف يحث على تدعيم علاقة المحبة بين المؤمنين ، يروى عن أبى مالك الأشعرى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «يأيها النَّاسُ ، اسْمعوا وتعلموا واعْلَموا أن لِلهِ عبادًا ليْسُوا بأَنْبياء ولا شُهداء يغْبطُهُم النَّبيُّون والشُّهداءُ ، على منَازِلِهِمْ وقُرْبِهِمْ مِنْ اللهِ ، فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى النَّبىِّ صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول اللهِ : ناس مِن النَّاسِ ليْسُوا بأَنْبِياء ولا شُهداء يَغْبِطُهُم الْأَنْبياءُ والشُّهداءُ على مجالِسِهِم وقُرْبِهِمْ مِن اللهِ . . . انعتهم لنا ، حَلِّهِمْ لنا - أى صفهم لنا - فسر وجه النبى بسؤال الأعرابىّ وقال : هم نَاسٌ من أفناءِ الناس ، ونوازع القبائل ، لم تصل بينهم أرْحام متقَارِبة ، تحابُّوا فى الله وتَصَافَوْا ، يضع الله لهم يوم القيامة مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا ، فيجعل وُجُوهَهُمْ نُورًا ، وثِيَابَهُمْ نورًا ، يفزعُ النَّاسُ يوْم الْقِيامةِ ولَا يفْزَعُونَ . وهمْ أوْلِيَاءُ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُون»[3] .

يا عباد الله : إن الأمة التى تريد أن تحقق لنفسها أعزّ الأمجاد ،

---

(١) رواه البخارى . (٢) سورة الحشر : ٩ .

(٣) رواه أحمد والحاكم .

وأن تعيش عزيزة بين الأُمم ، وأن تحيا قوية الجانب مسموعة الكلمة ، عليها أن تلتزم فى حياتها بالسير فى طريقين واضحين لا تحيد عنهما ، ولا تتخلى عن واحد منهما . . . هذان الطريقان : هما طريق الإيمان بالله وحده رب العالمين ، وما يستتبعه هذا الإيمان من عمل جاد مخلص بناء ، وسعى فى الأرض متصل ، وطريق الجهاد فى سبيل الله ، وفى سبيل تشبيت هذه الأمجاد ، فبالإيمان المتين نتغلب على المصاعب ، ونثبت على الشدائد . وما نجحت الدعوة الإسلامية إلا بفضل الإيمان الصادق من أبنائها المخلصين ، الذين قال الله فيهم : (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)[1] .

هذا الإيمان ليس دعوة تقال بلا دليل ، وليس شعارًا يرفع بلا مضمون ، وليس نظرية تُدَّعى بدون تطبيق ، بل هو يستتبع طريقًا جادًا يصل بصاحبه إلى تحقيق عزته وكرامته ، وهو طريق الجهاد ، والتضحية بكل ما هو عزيز وغال ، بحيث يخاطب المرءُ نفسه بما خاطبها به ذلك الشاعر العربى الشجاع حيث قال :

أَقُول لها وقد طارت شعاعًا ... من الأَبطال ويْحَكِ لَنْ تُرَاعِى
فإِنَّك لَوْ سَأَلْتِ بَقَاءَ يَوْم ... على الْأَجَلِ الَّذِى لكِ لَنْ تُطَاعِى
فصَبْرًا فِى مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا ... فما نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ

والقرآن الكريم يرشدنا إلى أن الإيمان لا ينفك عن الجهاد ، بل إن الجهاد تطبيق عملى له ، ويحمل حملة عنيفة على أولئك الذين يريدون أن يحققوا لأنفسهم أو لأُمتهم أمجادًا رخيصة سهلة ، عن طريق رفع الأصوات وكثرة الادعاءات . إن هذا الصنف من الناس وجد فى صفوف الأُمة المسلمة

---

(١) سورة الأحزاب : ٣ .

منذ بدء وجودها ، وكشفهم القرآن الكريم ليكونوا عبرة لمن يسلك سلوكهم .. فهؤلاء جماعة من المسلمين ألمّتْ بنفوسهم البشرية لحظات ضعف طارئة ، وقيل فى بعض الروايات إنهم كانوا يتمنون أن يأذن الله لهم فى القتال ، قبل أن يجيء أوانه ، فلما كتب عليهم القتال فى المدينة فى الوقت الذى قدره الله ، إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله ، أو أشد خشية ، ونزل فيهم وفى أمثالهم من المعوقين الذى يخشون ملاقاة الأعداء : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ؟ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[1] .

مثل هؤلاء الجماعة من الناس لا تتحقق بهم أمجاد ، ولا تعتز بهم دعوة ، ولا يسعد بهم وطن ، بل إنهم يضيعون ما يحققه غيرهم من عزة وكرامة ، والأمم لا تخلو فى فترة من فترات وجودها ، ولا فى مرحلة من مراحل حياتها من مكافحين يصمدون فى البأساء والضراء وحين البأس ، ولا يبالون بالشدائد مهما تشتد ، ولا بالصعاب مهما تتكاثر ، لأنهم يثقون بحتمية النصر ؛ الذى يؤيد الله به عباده المخلصين المجاهدين ، حسبما قال تعالى وقوله الحق : ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2] .

وقال : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[3] .

يا عباد الله : لقد أتى على الأمة الإسلامية زمن كان لها ملك لا تغيب

---

(١) سورة النساء : ٧٧ و ٧٨ .
(٢) سورة المجادلة : ٢١ .
(٣) سورة غافر : ٥١ .

عنه شمس ، ولا يمطر دونه سحاب ، وكانت أُمة رائدة بين الأُمم ، لها شخصيتها وذاتيتها ، التى تستمدها من دينها الحنيف ، ومن تعاليم رسولها الكريم . . . ولكى يستعيد المسلمون هذه الأَمجاد عليهم أَن ينحُّوا عن أَنفسهم كل عوامل العجز والقصور . عليهم أَن ينفوا عن أَنفسهم ثلاث صفات : الوهن الذى يكون فى القلب ، والذى يهز عقيدة الجندى المقاتل فيسائل نفسه : لماذا أُقاتل ؟ ولِمَ أَحمل رأسى على كفى وأَقف هذا الموقف ؟ الصفة الثانية : الضعف أَمام العدو والخشية منه . الصفة الثالثة : الاستكانة التى تزحف على نفسه فتنهار روحه المعنوية ، ويهتز السلاح فى يده ، ولهذا يحذرنا القرآن من هذه العوامل الثلاثة المثبطة للهمم ، القاضية على كل الأَمجاد فيقول : (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)[1]. وفى مقابل ذلك عليهم أَن يتصفوا بصفات ثلاث ، تمكن لهم فى الأَرض ، وتؤكد شخصيتهم وذاتيتهم . . . عليهم أَن يصلوا قلوبهم دائماً بخالقهم ، فيستنجزوه النصر ، الذى كتب للمجاهدين ، وثانيا عليهم أَن يجعلوا أَقدامهم ثابتة فى كل معركة من معارك الحياة ، بحيث لا يهتزون ولا يتزعزعون ، بل يواجهون أَعداءهم فى صلابة مؤمنة ، ويندفعون إلى هدفهم فى إيمان ونظام . . . وثالثاً : عليهم أَن يتأَكدوا من أَن الله ناصرهم على القوم الكافرين ؛ لأَنهم يقاتلون من أَجل البغى والعدوان وإعلاء كلمة الباطل ، والمؤمنون يقاتلون فى سبيل الله ومن أَجل تحقيق السلام والعدل فى الأَرض . وقد ذكر الله تعالى نبأَ هذه الصفات فى قوله تعالى : (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)[2] .

(١) سورة آل عمران: ١٤٦ .

(١) سورة آل عمران : ١٤٧ .

ونتيجة ذلك كله تحقيق الأمجاد الغالية ، والانتصارات العزيزة ، والحياة الكريمة الطيبة ، وحسن الجزاء : (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) ، ولهذا يقول القرآن الكريم عقب هذه الآيات : (فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[1] .

واتقوا الله عباد الله ، وسيروا سيرة سلفكم الصالح من التمسك بعقيدتكم وبمبادئ دينكم ، وباتخاذ طريق الكفاح وسيلة لتدعيم الانتصارات ، واستعادة الأمجاد ، وبذلك يرضى عنا رب العباد ، وباسط الأرض ورافع السموات . . . وهو على ما يشاء قدير . . . وهو نعم المولى ونعم النصير .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٨ .

الإسلام وحقوق الإنسان

الحمد لله ، نصير المؤمنين العادلين ، ومؤيد العاملين المجاهدين : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)[1] .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يجازى الإنسان بما عمل (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)[2] .

وأشهد أن محمدًا رسول الله ، أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ويحرر الإنسان من ظلم أخيه الإنسان ، وليؤكد كرامة هذا المخلوق الذى فضله ربه على كثير ممن خلق ، وجعله أهلا لخلافته فى الأرض ، ليعمرها ويمشى فى مناكبها ، ويستخرج ما فيها من خير : (هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[3] . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، الذين ساروا على طريقته واتبعوا هداه : (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[4] .

أما بعد ، فيا عباد الله . . . لكى يدرك الإنسان إدراكًا كاملًا ، أصالة العقيدة التى يؤمن بها ، عليه أن يكون ذا وعى عميق بالتاريخ ، ليتبين له حال الأمم والشعوب فى تاريخها الطويل ، وليعرف مدى الاستهانة بالإنسان فى نظر هذه الأمم القديمة . . . هذا الإنسان الذى هو موضع الكرامة فى الأرض ، ومناط التقدير والإعزاز ، بما أودع فيه من عقل ، وبما يتميز به

---

(١) سورة العنكبوت : ٦٩ .
(٢) سورة فصلت : ٤٦ .
(٣) سورة الملك : ١٥ .
(٤) سورة البقرة : ٥ .

عن غيره من المخلوقات بصفة الإرادة ، التى تدفعه إلى أن يفعل ما يراه صواباً ، ويجتنب غيره ، مما يراه مجافياً لمنطق العقل ، ولاطمئنان الضمير . . .

فقبل أن تشرق شمس الإسلام على العالم ، كانت هناك ثلاث أمم ، تتقاسم التقدم والحضارة على الأرض، وترفع شعارات مختلفة للحرية والعدالة ، هذه الأمم الثلاث هى : الرومان ، والفرس ، والعرب . فأما الرومان فيسجل التاريخ أن الشعب كان طبقتين : طبقة الأشراف ، وطبقة العامة ، وللأشراف وحدهم – على قلة وضآلة أعمالهم – كثير من الحقوق والمزايا التى لا ينعم بها غيرهم ، فمنهم الأمراء والحكام وقواد الجيش ، وهم الذين يسيطرون على وسائل الإنتاج المختلفة ، ويتحكمون فيها بحسب ما يشاءون . وكانت طبقة العامة تسام سوء العذاب ، لا يجرؤ واحد منهم أن يظل جالساً ورجل من الأشراف مارّ فى الطريق ، ومن اجترأ على ذلك كان جزاؤه الجلد والتعذيب . وإشارة الشريف مطاعة ، وحاجاته منجزة ، وليس لأحد أن يخالف رأيه أو يسافر بغير إذنه ، أو يتزوج إلا بعد موافقته ، وكأن القوانين تحمى طبقة الأشراف ، وتساعد على إبقاء الطبقة الأخرى فى هوان وشقاء . . .

وأما الفرس فقد كان الظلم فيهم أوضح ، والاستبداد أقسى وأشنع ، وكان الحكام منغمسين فى الترف ، منصرفين إلى اللهو والمتاع . . . ووضعوا أنفسهم موضع القداسة حتى اعتقد العامة أنهم آلهة تعبد ، من طول ما مرّ عليهم من ضروب الخضوع وألوان الاستبداد .

وأما العرب فقد كانت لهم بعض العادات المحمودة ، إلا أن خصالهم المستهجنة كانت أوضح وأشد ، لأنها خصال تتنافى مع إنسانية الإنسان ،

منها ما شاع فى بعض القبائل : مثل وأد البنات ، وشن الغارات ، واستباحة السلب ، وقصر الميراث على بعض الأبناء ، واستبداد الأقوياء بالضعفاء ، ومعاملتهم كالأرقاء ، وترك القصاص من الأشراف ، والاستهانة بالضعفاء . وظل الحال كذلك ، إلى أن أراد الله أن يرد الإنسان إلى فطرته ، وهى فطرة الخير والكرامة ، فأرسل رسوله محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله : (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[1] . . .

وإن أول ركيزة يقوم عليها بناءُ الإسلام هى عقيدة التوحيد ، هذه العقيدة تثبت تكريم الإنسان وعزته وحريته . إن المسلمين تعلموا من هذه العقيدة أن الذى تعنو له الوجوه ، وتسجد فى حضرته الأرواح والأجساد ، وتستجيب لندائه وحكمه الخاصة والعامة ، هو قيوم السموات والأرض وحده ، وأن البشر قاطبة ينتظمهم سلك العبودية المطلقة لله وحده ، وأن من حاول أن يتطاول فوق هذه العبودية ، وأن يستعبد إنساناً مثله فى الإنسانية ، يجب قمعه حتى يعرف مكانته فلا يعدوها : (إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِى الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا)[2] .

ولما حاول أشراف العرب أن يشككوا فى عقيدة التوحيد ، وأن يحاوروا رسول الله بمفهومهم القبلى ، ردّ عليهم الرسول رداً حاسماً ليقطع عليهم صلفهم وطغيانهم ، لقد قالوا له : يا محمد انسب لنا ربك ، فنزل قوله تعالى : (قُلْ

---

(١) سورة المائدة : ١٥ و ١٦ . (٢) سورة مريم : ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ .

هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ »(١) هذه العقيدة كانت قاعدة ومنطلقًا لتقرير حقوق الإنسان ، وهى الحقوق التى لا يساندها الإسلام فحسب ، بل يدفع إليها دفعًا قويًا ، بحكم نظرته الإنسانية ، وملاءمته للطبيعة البشرية ، وهو إذ يقررها كقواعد ثابتة أوجب على المسلمين فى جميع عصور حياتهم أن يلتزموا بها ، وأن توضع موضع التطبيق ، وقد شاهدنا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى عصبة الأمم التى قامت كهيئة دولية تعمل من جانبها على تحقيق «تقرير المصير» للشعوب المغلوبة على أمرها ، تلك التى احتُلَّت أرضها تنفيذًا للسياسة الاستعمارية التى سادت فى القرن التاسع عشر ... وشاهدنا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية هيئة الأمم المتحدة التى قامت لتعلن وثيقة حقوق الإنسان ، وتنص المادة الأولى منها على أن الناس يولدون أحرارًا متساوين فى الكرامة والحقوق ، ويجب أن يعامل بعضهم بعضًا بروح الإخاء ، دون تفرقة بسبب السلالة أو اللون أو الجنس ... ولا شك أن هذا مبدأ إنسانى كريم ، فرح العالم بإصداره ، لأنه يؤمِّن الجميع ، ويضع حدًا للاضطهاد والاستغلال ، ولا يكون هناك اعتداءٌ من قوى على ضعيف ، بل الجميع إخوة فى الإنسانية ، يعيشون متحابين متعاونين ، وإن غاية ما تتطلع إليه البشرية هى أن يسود أرضها السلام ، وترفرف عليها ألوية العدالة والمساواة ، حينئذ يتجه كل واحد إلى البناء والتعمير ، وتنزاح أشباح الحروب التى تدمر ولا تعمّر ، وتخرب ولا تبنى ، ولا تجنى الإنسانية من ورائها إلا التأخر والضعف والهوان ...

لكن هل وضعت هذه القواعد موضع التطبيق ؟ إن العالم يرى فى الدول

---

(١) سورة الإخلاص : ١ و ٢ و ٣ و ٤ .

القوية من لا يخلص لهذه الحقوق ، ويشاهد من لا يصدق وعده بها ، وأوضح شاهد على ذلك ما اقترفه الصهاينة فى فلسطين بالتواطؤ مع الاستعمار ، وإن ما فعلوه بهذه البقعة العزيزة من أرض العروبة لهو صورة كريهة من صور التفرقة العنصرية التى تأباها وثيقة حقوق الإنسان ، إن أبناء فلسطين تركوا فريسة للجوع والعرى والهوان ، إنهم فى الصحارى يفترشون الرمال ، ويلتحفون السماء تحت بصر الدنيا وسمعها ، وعلى مرأى ممن أعلنوا حقوق الإنسان . ويشاهد العالم الآن صورة أخرى كريهة من صور التنكر لحقوق الإنسان ، هى ما يحدث فى جنوب إفريقيا من سيطرة جنس بعينه على أصحاب البلاد الحقيقيين ، وما زالت حتى الآن تمارس صور التفرقة العنصرية فى قلب الولايات المتحدة التى ولدت على أرضها وثيقة حقوق الإنسان . . .

يا عباد الله : إزاء هذا التنكر لإنسانية الإنسان ، علينا – نحن المسلمين – أن نزداد استمساكًا بتعاليم ديننا الحنيف ، وأن نؤمن إيمانًا لا يقبل الشك أو التردد بأن نظامه خير ما تصلح به البشرية ، لأنه يعتمد على ضمير الإنسان فى تطبيق مبادئه ، ويعتمد على الخشية من الله ، فنحن بإسلامنا خير أمة أخرجت للناس .

إن الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا وضع قواعد الحقوق الإنسانية وجعلها تساير الإنسان طالما هو كائن على وجه الأرض ، لقد علَّم الدنيا كيف تصان الحقوق ، وكيف تحفظ كرامة الإنسان ، فقد قرر وحدة النوع الإنسانى ، وتساوى الجنس البشرى فى أصله ومنشئه ، فيقول القرآن الكريم : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ من نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَها وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)[1] .

(١) سورة النساء : ١ .

ويقول : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[١] . هذه النظرة تعبر عن مساواة الإنسان للإنسان ، لا فرق بين لون ولون ، أو بين جنس وجنس ، أو بين ذكر وأنثى ، والفرق بين إنسان وآخر هو فيما يؤديه الإنسان من صالح العمل ، فالتقوى صورة الإنسانية المهذبة التى وضعها الإسلام هدفاً يسعى للوصول إليه كل فرد ، والناس فى مراحل السعى إليها يختلفون قرباً وبعداً منها ، ويأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحارب النزعة العنصرية واللونية المؤدية إلى التفرقة بين فردين من البشر ، فلقد كان المؤذن الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو بلال العبد الأسود ، وكان صوته هو الذى ينادى جماعة المؤمنين خمس مرات كل يوم ، للوقوف بين يدى الله . وتجادل مرة الصحابى المعروف أبو ذر الغفارى مع أحد الزنوج ، واشتط به الغضب فقال له : يا ابن السوداء ، وسمع الرسول هذه الكلمة النابية فأنكرها أشد الإنكار وقال لأبى ذر : «أَعيَّرتَهُ بِأُمِّهِ ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيةٌ » ، ومما قاله: «طفّ الصَّاعُ – أى جاوز الأمر كل حد – لَيْسَ لابْنِ الْبَيْضَاءِ عَلى ابْنِ السَّوْدَاءِ فَضْلٌ إِلَّا بالتَّقْوَى أَوْ بِعَمَلٍ صَالِحٍ »[٢].

وحدث أن جاء أسامة بن زيد يشفع فى امرأة وجب عليها حد السرقة ، فغضب الرسول لأنه وجد أن هذا السلوك من أسامة معناه عدم تقدير لقيمة المساواة فى الإسلام ، فقال له بعنف : «أَتَشْفَعُ فى حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ ؟ إِنَّ بنِي إِسْرائِيل كانوا إِذَا سرق فيهم الشَّرِيفُ تَركُوه ، وإِذَا سرق فِيهِمُ الضَّعِيف قَطَعُوهُ ، والله لو كانت فاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدهَا »[٣] ، وقد

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .
(٢) رواه البخارى .
(٣) رواه البخارى .

ترجم صحابة رسول الله هذه التوجيهات إلى عمل ، فحينما كانوا يواجهون موقفًا من المواقف التى تتعارض مع حقوق الإنسان ، كانوا يصححون المفاهيم ، ويطبقون قواعد الإسلام ، وهذا هو ما حدث من عمر بن الخطاب ، وهو خليفة المسلمين ، حينما جاءه مصرى قد ضُرب من ابن حاكم مصر عمرو بن العاص ، ولم يكتف الابن الضارب بجريمة الضرب ، بل قال للمصرىّ حينما أقسم ليشكونَّه إلى عمر : افعل فلن تضيرنى شكواك ، أنا ابن الأكرمين ، إن عمر ينظر إلى عمرو بن العاص نظرة استنكار ويقول له هذه الكلمة العظيمة : «متى اسْتَعبدْتُم النَّاس وقد ولَدتْهُمْ أُمّهَاتُهُمْ أحْرارًا» ، ثم توجه إلى الشاكى وناوله سوطه ، وقال له : . «اضرب ابن الأكرمين كما ضربك» .

هذا - يا عباد الله - جانب من حديث الإسلام عن حقوق الإنسان ؛ والتى صورها كتاب الله أعدل العادلين ، وسيرة الرسول الكريم ، وقد سعدت الدنيا وأزهرت ، وأثمرت أمنًا وسلامًا وحياة سعيدة بتطبيقها لهذه المبادئ ، وذلك حينما حرص المؤمنون على العدالة الإنسانية ، والمساواة البشرية ، وما ذلك على الله بعزيز ، ولا بمستحيل على الإنسان إذا تدثر باليقين ، والإيمان أن يعاود حمل مشاعل الحق والخير والعدل ليمضى بها فى تقرير حقوق الإنسان ، من وحى شريعة الإسلام . . . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «عليْكُمْ بسُنَّتِي وسُنَّةِ الْخُلَفَاء الرَّاشِدِين المهْدِيِّين مِنْ بعْدِى ، عضُّوا علَيْهَا بالنَّواجذِ»[1] .

---

(١) رواه البخارى.

الإسلام والسلام

الحمد لله الذى أمر عباده أن يتعاونوا على البر والتقوى ، ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، رب المستقدمين والمستأخرين ، وأشهد أن محمدًا رسول الله ، منة الله على المؤمنين ، ورحمته للناس أجمعين . اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين . أما بعد فيا عباد الله :

إنكم تقرءون فى تاريخ الأمم ، وتشاهدون من أحوالها ما تعلمون منه أن الناس يتحاربون فى كل عصر ، وفى كل صقع من الأرض ، وتعجبون من أنهم كلما صعدوا فى سلم الحضارة زاد افتنانهم فى اختراع وسائل الحرب ، والتخريب والتدمير ، وهم لا يبتغون من الحرب إلا بسط السلطان ، وتوسيع الملك ، وإشباع النهم إلى الشهوة والمجد ، واستبعاد الضعفاء ، والاستئثار بخيرات بلادهم .

وطالما ترددت الدعوات إلى السلام ، فأعرض الناس عن سماعها ، كأنما كتب عليهم ألا ينعموا بسلام دائم .

أيها المسلمون :

من السهل بعد هذا التمهيد أن تتبينوا عظمة الإسلام ، لأنه دين سلام ، يؤثر السلم على الحرب ما وسعه الإيثار ، فإذا لم يكن من الحرب بدّ لحماية العقيدة ، وصيانة الحياة ، أو الدفاع عن الوطن ، فإن الإسلام يدعو المسلمين فى هذه الحالات إلى أن يحاربوا ، وإلى أن يلقوا الشر بمثله ، والسبب فى هذا أن الإسلام يدعو إلى المثل الأعلى فى جميع الصلات والمعاملات ، فإذا لم ينجح المثل الأعلى لجأ الإسلام إلى العلاج الذى

لا ينجح سواه ، مراعاة للواقع ، ومجاراة للأحداث .

عباد الله : لا غرابة فى أن يكون الإسلام دين سلام ، والقرآن الكريم يصف المؤمنين المتقين بالتسامح والمسالمة فى قوله تعالى : (وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِين يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا)[1] ، ويسمى القرآن الكريم الجنة دار السلام : (لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ)[2] ، ويجعل التحية فيها سلامًا : (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ، وَأَعدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا)[3] ، ويبشر الأتقياء بأن الملائكة ستحيِّيهم فى الجنة بالسلام : (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[4] .

ثم إن كل مسلم يقول فى تشهده كل يوم مرات : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ثم يختم كل صلاة بالسلام .

أيها المسلمون ، ارجعوا إلى تاريخ الإسلام فى عهده الأول تجدوه قد قام على الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ودعا إلى السلام ، فأبى أعداؤه إلا الحرب والخصام ، فصبر النبى والمسلمون على الأذى ، فلما لم يزدد المشركون إلا طغيانًا وعدوانًا لم يكن للمسلمين مندوحة عن الحرب ، ليحموا عقيدتهم وأرواحهم ، استجابة لدينهم الذى يدعو إلى السلام ما اتسع الأمل للسلام ، ويأمر بالقوة والدفاع والاستعداد للحرب إذا لم يكن بد من الحرب ، قال تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ومِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ)[5] ، وقال سبحانه :

(١) سورة الفرقان : ٦٢ .
(٢) سورة الأنعام : ١٢٧ .
(٣) سورة الأحزاب : ٤٤ .
(٤) سورة النحل : ٣٢ .
(٥) سورة الأنفال : ٦٠ .

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)[١] .

عباد الله : إذا كان ديننا الحنيف قد أباح الحرب بعد اليأس من المسالمة فإنه قد سن من التشريع الحكيم الرحيم ما يضيق ميدانها ، ويكفل حرمات الإنسانية ، ويرعاها أتم رعاية .

فليس للحرب هدف إلا الدفاع عن الدين والوطن والحياة ، وهذا الدفاع يتحقق باتقاء الخطر الواقع أو الخطر المتوقع ، ولهذا لم يحارب المسلمون إلا ليردوا العدوان ، ولم يشهروا سيوفهم إلا بعد اليأس من مسالمة أعدائهم ، مقتدين بنهى القرآن الكريم عن العدوان ، حتى على الأعداء الذين ظلموا المسلمين من قبل ، قال تعالى : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[٢] ، فالحرب لإعلاء دين الله الذى ارتضاه ، وليست للسيطرة ولا للاحتكار ، ولا للغنائم والأسلاب ، وفى ختام الآية الكريمة تحذير من الاعتداء ، لأن الاعتداء بغيض إلى الله .

كذلك نهى القرآن الكريم عن قتال من أعلن مسالمته وإن توقع المسلمون من محاربته منافع مادية ، فقال تعالى : (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ، تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ)[٣] ؛ وقد جرى المسلمون على هذا فكانوا يبعثون إلى البلد الذى يريدون فتحه شروطًا للصلح قبل أن يحاربوه ، كما فعل عمرو بن العاص مع أهل غزة حينما حاصرها ، وكما فعل مع أهل مصر ؛ إذ عرض عليهم الحرية الدينية والعدالة الشاملة .

وإذا جنح الأعداء إلى السلام كان على المسلمين أن يسالموهم ، وإذا ما رغبوا فى الهدنة كان على المسلمين أن يهادنوهم ، على شرط ألا يكون

---

(١) سورة البقرة : ١٩٠ .
(٢) سورة البقرة : ١٩٤ .
(٣) سورة النساء : ٩٤ .

فى هذا إهدار لحق من حقوق الله ، أو تعويق للدعوة عن الذيوع ، قال تعالى : (فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ، فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا)[1] ، وقال تعالى : (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ)[2] .

ولقد نظر الإسلام إلى السلام على أنه الأصل فى علاقات الجماعات ، ونظر إلى الحرب على أنها عمل طارئ موقوت ، ولهذا حصر شرورها فى أضيق مجال ، فلا يصح أن تتعدى المقاتلين إلى المسالمين الذين لايحاربون كالشيوخ والأطفال والعجزة والعباد المنقطعين لعبادة الله ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فى غزوة ، فمر بامرأة مقتولة ، فوقف وقال : ما كانت هذه لتقاتل ، وفى يوم الفتح أمر أحد المسلمين أن يلحق بخالد بن الوليد ويقول له : لَا تَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وَلَا عسيفًا (أجيرًا) ولا امرأة ، وأمرَ المسلمين بألا يقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلا صغيرًا ولا امرأة وقال لهم: « اخْرُجُوا بِاسْمِ اللهِ ، فَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ ، لا تَغْدِرُوا ، ولا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ ، ثُمَّ سَارَ خُلَفَاؤُهُ عَلَى سُنَّتِهِ .

ولا يجوز للمسلمين أن يجيعوا أعداءهم أو يقتلوا سفراءهم ، أو يعتدوا على المستأمنين فى ديار المسلمين من رعايا الدولة المعادية .

أيها المسلمون :

كفل الإسلام للمغلوبين حريتهم الدينية ، فلا إكراه ولا إجْبار ، وكيف يتصور أحد أن الغرض من الجهاد كان الإجبار على الإسلام ونبى الإسلام عليه الصلاة والسلام مخاطب بقوله تعالى : (لَسْتَ عَلَيْهِمْ

---

(١) سورة النساء : ٩٠ .

(٢) سورة الأنفال : ٦١ .

بِمُسَيْطِرٍ)[1] ويقول تعالى : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)[2] .

نعم إن المسلمين لم يستغلوا انتصارهم لإكراه الناس على أن يسلموا . لأنهم يدينون بأنه لا إكراه فى الدين ، ولأنهم يعلمون أن للإسلام من قوته الذاتية ما يفتح له القلوب ، ويشرح الصدور ، فقد ذاع فى مكة ، والنبى وأتباعه قلة ، لا يملكون من وسائل القوة ما يحمون به أنفسهم من الأذى ، ثم ذاع فى المدينة قبل أن يهاجر النبى إليها ، وتعهد الذين أسلموا بحماية النبى ونصرته إذا هاجر إليهم ، ثم استمر ينتشر بقوته الذاتية فى كل عصر ، حتى فى العصور التى ضعف فيها المسلمون ، ويكفى أن نضرب المثال بالأتراك السلاجقة فى القرن الخامس ، وبالمغول فى القرن السابع ، إذ تغلب هؤلاء وأولئك على المسلمين ، ولكنهم سرعان ما اعتنقوا دينهم ، وصاروا من أتباعه المخلصين .

وإنه ليسترعى الأنظار بعد ذلك أنه لما فقد المسلمون قوتهم وسلطانهم كان دعاة الإسلام يحملونه إلى أواسط إفريقيا ، وإلى الصين وجزائر الهند الشرقية .

لقد شرع الإسلام أعدل النظم وأرحمها فى معاملة المغلوبين ، وفى معاملة الأسرى والسبايا .

أيها المسلمون :

إن التاريخ ليقص فيما يقص من أنبائه الصادقة أن العالم القديم كان

---

(١) سورة الغاشية : ١٢ .

(٢) سورة النحل : ١٢٥ .

يئن من عسف الحكام ، ومن مظالم الاضطهاد الدينى ، فلما جاء الإسلام بسماحته وعدالته رحب العالم به لأنه وجد فيه ملاذه وأمنه وسلامه .

وإن الإسلام الذى يدعو إلى القوة يدعو إلى السلام ، فلا جبروت ولا طغيان ، ولا ذلة ولا استسلام ، فهو خير الأديان ، وخاتم الأديان .

خطبة عيد الفطر

الله أكبر (تسعاً)

الله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد

الله أكبر ما تعالت أصوات الناس بالتكبير

الله أكبر ما تفتحت أبواب السماء فى هذا الصباح الكبير

الله أكبر ما تنزلت علينا رحمة الإله العلى القدير

الله أكبر ما تقاربت قلوب المسلمين فى هذا اليوم العظيم

الله أكبر ما تعاونت الجهود ، وصدقت العهود ، وتعاطفت القلوب

الله أكبر كبيرًا ، والحمد لله كثيرًا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، وصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين .

أما بعد : فيقول الحق سبحانه فى كتابه الكريم : (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ، وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[1].

أيها المسلمون : هذا يوم من أيام الله المباركة ، جمعكم فى صباحه المبارك على طهارة وتقوى ، بعد أن أديتم فريضة الصوم خلال شهر مضى بحمد الله ، وأنتم فى هذا الصباح تضعون يدكم فى يد الله تتسلمون منه

(١) سورة البقرة : ١٨٥ .

جائزة التوفيق فى صوم رمضان ، وتمارسون فرحتكم الخالدة التى أنعم الله بها عليكم عن جدارة واستحقاق . فهنيئًا لكم ما صمتم وما أفطرتم ، وما فرحتم اليوم بصومكم وفطركم ، وهنيئًا لكم إقبالكم فى هذا الصباح على تكبير الله وشكره . وإنه لأمر عظيم الحكمة أن يجعل الله سبحانه شعار العيد هذا التكبير ، الذى ترتفع به أصوات المؤمنين فى مشارق الأرض ومغاربها ، الجميع هتافهم واحد ، ووجهتهم واحدة ، وإحساسهم بالرضا واحد ، ودعواتهم إلى الله سبحانه حاملة أسمى معانى الخضوع لجبروته ، والإذعان لحكمه وتقديره ، وليس كهذا الشعار تعبير عن إيمان الأمة بربها فى يوم عيدها المبارك ، وذلك اختيار من الله سبحانه حين خاطب عباده بقوله : (وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) . ولعل من أعظم ما امتاز به هذا الصباح أن الدعاء فيه متقبل مستجاب ، فقد عقب الحق سبحانه على مشروعية التكبير لاستقبال العيد بقوله : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) ، وليس ترتيب الآيات على هذا النحو بخال من الحكمة ، وإنما هو ترتيب يعبر عن استحقاق الداعين لأن يستجيب الله لهم ، أليسوا قد صاموا الشهر كله وقاموه ؟ . . . أليسوا قد أحسنوا إلى أنفسهم حين عصموا جوارحهم من ارتكاب المعاصى ؟ . . . أليسوا قد لبوا نداء الله سبحانه حين هبوا من رقادهم اليوم ، مكبرين مهللين ، حامدين شاكرين ؟ ثم أليسوا قد فرغوا من توزيع زكاة فطرهم قبل أن يغدوا إلى مصلاهم ، فجبروا الكسير ، وواسَوُا المكلوم ، وأسعدوا البائس الفقير ؟ . . . ثم أليسوا قد تعاونوا بهذا التصرف الجماعى البار على القضاء على صورة الفاقة فى صباح عيد الفطر ؟ . . . إنهم بهذا جديرون أن يستجاب لهم إذا ما دعوا

الله سبحانه وهو قريب منهم وما عليهم إلا أن يقدموا بين يدى طاعتهم ما يريدون من مطالب لا يقدر عليها سوى الله القادر الحكيم ، وهى مطالب منبعثة من قلوب مؤمنة ، وأفواه نقية ، ومشاعر تقيّة ، وتلكم هى شرائط الدعاء المستجاب .

أيها المسلمون :

هذا هو أول معنى يخطر للمرء حين يفكر فى العيد ومفهومه الإسلامى . والمعنى الثانى الذى نلحظه فيما سن الإسلام من أعياد لهذه الأُمة ، أنه ربط العيد بمناسبة عامة ، هى الفراغ من أداء عبادة شاقة ، وهذا الربط ذو مغزى عميق ، يتصل بنظرة الإسلام العامة إلى العيد ، فليس العيد فى نظر الدين تمجيداً لشخص مهما عظم ، ولا هو مرتبط بمناسبة دنيوية مهما كانت ، ولو كان من مبادئ الإسلام تمجيد الأشخاص لكان ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم عيداً للإنسانية يدعو إليه الإسلام. ، ولكان يوم مبعثه عيداً ، ولكان يوم انتصاره على أعداء الدعوة فى بدر ، أو فى فتح مكة ، عيداً كذلك . وإن كانت هذه كلها مناسبات تاريخية عظيمة ، لا يقصد فى تمجيدها تقديس شخص الرسول ، بقدر ما يقصد إلى إحياء معانى الكفاح ، والاحتفاء بقيم الإيمان والتاريخ ، لأبرز مناسبة فى عمر هذه الدعوة الخالدة ، فإن الإسلام – برغم روعة معانيها – لم يرد لهذه الأُمة أن تدور أعيادها حولها ، فالأعياد التى تدور حول أشخاص المصلحين قد تدوم فى حياتهم ، أو فى حياة أنصارهم ، ولكنها لا يكتب لها الخلود ، فقد يأتى الخلف لينقض ما سنه السلف. وليس من شأن الدين أن يصرف عواطف المؤمنين إلى تقديس فرد ، بل هو يدعوهم إلى توحيد الله ، والله وحده هو الحقيق بالتعظيم والتمجيد ، والتقديس ، وينبغى أن تدور أفكار المؤمن

وعواطفه ، وحياته وعبادته ، فى هذا الفلك العظيم : (قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى ، وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى ، لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)(١).

فالمؤمن – فى الواقع – فى شغل شاغل عن معانى الدنيا ، بمعانى الآخرة ، بكل ما يقربه من الله سبحانه ، فهو إذا صام صام لله ، وإذا عيّد عيّد لله ، وإذا حج حج لله ، وإذا زكى زكى لله ، وإذا صلى صلى لله ، لا شريك له ، والله يرصد له حسناته جميعًا حتى الخطوة التى يخطوها فى سبيله ، والكلمة التى يقولها ، أمرًا بمعروف ،أو نهياً عن منكر ، وصدق الله العظيم : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ، وَلَا نَصَبٌ ، وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَطَأُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ، وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ، إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(٢). والمؤمن فى فكر دائم فيما يقربه من رضوان الله ، فإذا صادفه التوفيق فى عبادته كان له أن يفرح بما آتاه الله من فضله ، (شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ) ، إذ ليس فى حياته ما يفرح له سوى أن يحس بأنه أدى واجبه ، وامتثل أمر ربه ، ومن هنا كان العيد للمؤمن إجازة ربانية يستريح خلالها من مشقة الرحلة التعبدية ، من صيام ، أو حج إلى البيت الحرام .

أيها المسلمون :

من أجل هذا ينبغى على كل منا أن يكون احتفاله بالعيد موصولا بمعانى الآخرة ، غير مقتصر على مظاهر التسلية المؤقتة ، وليس معنى هذا أن نمنع

---

(١) سورة الأنعام : ١٦٢ و ١٦٣ .   (٢) سورة التوبة : ١٢٠ و ١٢١ .

أولادنا من ممارسة بعض صنوف اللهو البرىء ، وبخاصة ما يتصل بتربية ميول الخير والشجاعة فى أنفسهم ، بل إن لهم أن يعيشوا أوقاتاً فى الغناء العف ، والمرح النقى ، لأن ذلك يريح أنفسهم ، ويرطب جو الحياة حولهم ، ويعينهم على تمثل أوامر الدين فى كل حال .

غير أن من الضرورى أن نواجه تصور مجتمعنا الحديث لمعنى العيد ، وهو تصور خاطئ متناف مع تعاليم الإسلام ، فمن الشباب من يفهم العيد على أنه انطلاق للغرائز المكبوتة ، وممارسة للفوضى السلوكية. فى غير تحرج أو حياء ، وتجاوز للمألوف من العادات والتقاليد الموروثة ، التى تعد بحق أهم سمات مجتمعنا الإسلامى. وقد أعان الشباب على هذا التصور المريض لمعنى العيد ما تنقله الصحافة ووسائل الإعلام المختلفة من ألوان الاحتفال بالعيد فى بعض بلاد أوربا ، فالعيد هنالك غير العيد هنا ، المناسبة مختلفة ، والتقاليد مختلفة ، والمثل مختلفة كذلك ، فإذا ما عرفنا أن بعض البلدان يحتفل بعيد من أعياده ، بأن تجتمع الفتيات والفتيان فى ميدان عام ، للرقص واللهو والاختلاط غير المقيد ، فإن لمجتمع كهذا تقاليده وشعاراته التى تنتمى إلى دينه أو لا دينه ، أما نحن هنا ، فى شرقنا الإسلامى ، فإن عيدنا ليس مناسبة تاريخية أو وثنية ، بل هو أمر دينى ، ومن ثم وجب أن يكون احتفالنا به على شرط الدين ، الذى لم يتزمت فى تكليفنا ، ولم يفرط فى توجيهنا : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ، لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1] .

كل منا ـ أيها المسلمون ـ رقيب على أولاده ، راع ومسئول عن رعيته ، وإنك لتستطيع منذ البداية أن تغرس فى ولدك بعض العادات السلوكية التى

---

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .

تترسب فى تصرفاته ، ليشب على احترام دينه ، والحرص على سلامة مجتمعه ، ومن ذلك أن تأخذه فى يدك إلى المسجد ليشهد تكبير المسلمين عقب الصلوات ، وأن تصحبه فى جولة خلال الأحياء الشعبية ليبحث بنفسه عن الأطفال الصغار المحرومين ، ممن هم فى مثل سنه ، فيشهد بعينيه حاجتهم ، ويداوى بنفسه فقرهم ، ويمنحهم ما يستغنون به فى ذلك اليوم المبارك ، ويمسح العبوس والكآبة من ملامحهم ، لتعود البسمة إلى شفاههم الذابلة . إن رحلة كهذه ضرورية لكل طفل من أطفالنا ، ولو مرة فى السنة أو مرتين ، وهى – فى الواقع – أشد تأثيرًا فى نفسه مما قد تقوم به المدرسة فى عام كامل ، إنها تغرس فى قلبه محبة بنى وطنه ممن هم دونه قدرة واستعدادًا ، فالوطن وطن الجميع ، وخيره لا بد أن يكون شركة بين الجميع ، وقد جعل الله القادرين من الأغنياء خلفاء عنه فى تصريف ما بأيديهم من نعمة على أصحاب الحقوق فيها : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[1] .

أيها المسلمون . . .

بقى أن أحدثكم عن صورة هذا العيد كما أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد حدثنا وهو الصادق المصدوق عن هذا اليوم على أنه حفلة مقامة بين السماء والأرض ، تشترك فيها الملائكة من الملإ الأعلى ، والطائعون من عباد الرحمن ، وهى حفلة يقدم فيها الصائمون محصول عبادتهم طيلة شهر رمضان ، ويقدم الله لهم خلالها جائزة التوفيق فى عملهم ، فالأفراح فى الأرض ، والأفراح فى السماء ، وإذا شئتم فاستمعوا إلى هذا الحديث الشريف :

« عن سعد بن أوس الأنصارى عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول

---

(١) سورة الذاريات : ١٩ و ٢٠ .

الله صلى الله عليه وسلم : « إذ كَانَ يَوْم عِيدِ الْفِطْرِ وَقَفَتِ الْمَلَائِكَة عَلَى أَبْوَابِ الطُّرق فنادوا : اُغْدوا يا مَعْشَرَ المُسْلِمِين إلى ربٍّ كريمٍ ، يَمُنّ بالْخَيْرِ ، ثُمَّ يثِيب عَلَيْهِ الْجَزِيلَ ، لقد أُمِرتُمْ بقيَامِ اللَّيلِ فَقُمْتُم ، وأُمِرْتُمْ بِصِيَام النَّهَارِ فَصمْتُمْ ، وأَطَعتُمْ رَبَّكُمْ ، فاقْبِضُوا جَوَائِزَكُمْ ، فإذا صَلَّوا نَادَى مُنَادٍ : أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ قد غفر لكم ، فارْجِعُوا راشِدِينَ إلى رِحَالِكُمْ ، فَهُوَ يَوْمُ الْجَائزَة ، ويُسَمَّى ذَلِكَ الْيَوْمُ فى السَّمَاءِ يَوْمَ الْجَائِزَة »[1] .

(١) رواه الطبرانى فى الكبير .

خطبة عيد الأضحى

الله أكبر (تسعاً)

الله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد ، الله أكبر كبيرًا ، والحمد لله كثيرًا وسبحان الله بكرة وأصيلا

الله أكبر ما أشرقت شمس هذا اليوم الأغر إلى يوم الدين

الله أكبر ما ارتفعت حناجر المسلمين بالدعاء فى هذا اليوم الميمون

الله أكبر ما لبى الملبون ، وطاف الطائفون ، وأهدى المضحون

الله أكبر ما سعى الحجيج بين الصفا والمروة ، وذكر الذاكرون

الله أكبر ما عنت الوجوه للحى القيوم

الله أكبر ما سعت الأقدام لزيارة سيد الأنام

الله أكبر الله أكبر ولله الحمد

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، وصلى الله وسلم وبارك على هذا النبى وعلى آله وأصحابه وأنصاره ، إلى يوم يبعثون .

أما بعد : فيقول الحق سبحانه : ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ . كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] ، ويقول : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ

(١) سورة الحج : ٣٦ و ٣٧ .

جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ، فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى الأَمرِ ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ)[1] .

أيها المسلمون . . .

هذا يوم عيدكم قد وافاكم فى صباح مبارك ، ترجون من الله أن يفيض عليكم من فضله وإحسانه ما تسعد به قلوبكم ، وتقر أعينكم . وقد جرت إرادة الله فى سن أعياد المسلمين على حكمة ارتبطت بها ، وفلسفة قامت عليها ، هى أن يجعل العيد عقب فراغ المؤمنين من أداء فريضة معينة ، فعيد الفطر يأتى فى أعقاب أداء الأمة الإسلامية لفريضة الصوم ، وعيد الأضحى يأتى فى أعقاب أداء المؤمنين لفريضة الحج ، وتمتعهم بزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهكذا يحس المؤمنون بمعنى العيد : أنه وقفة يسيرة بعد رحلة شاقة ، وأنه فسحة طيبة للبدن بعد أن خاض غمار عبادة مضنية ، وأنه جائزة الحق سبحانه لمن استجاب لله وللرسول . ومن الطبيعى لمن كلف أداء عمل شاق أن يأخذ بعد أدائه هدنة يريح فيها نفسه ، ويتذوق خلالها طعم السعادة بأداء الواجب ، على حين قصر آخرون ، فلم يبلغوا هذا المستوى الرفيع ، ولا طعموا تلك السعادة النفسية .

غير أن الدين الذى شرع لنا هذا العيد ، لم يجعل منه مناسبة يتحلل فيها المؤمن من قيود العبادة ، فالمؤمن عبد الله فى جميع ظروفه ، وسائر أحواله ، والدين لا يريد للعبد أن يفقد الصلة بربه لحظة من ليل أو نهار ، وإنما تجرى الأمور فى تصور الدين على أن الحياة رحلة ، يضع المؤمن بعد كل مرحلة من مراحلها رحاله ، كيما يلتقط أنفاسه ، ويهدئ أعصابه المشدودة ،

---

(١) سورة الحج : ٦٧ .

ثم هو يستأنف بعد راحته القصيرة مرحلة أخرى من مراحل الجهاد الروحى ، والحياة الخاشعة النقية .

من أجل هذا حفل العيد فى نظر الدين بالكثير من الوصايا ، والشعائر والمناسك ، التى تجعل له رسالة اجتماعية ، إلى جانب أنه مناسبة إسعاد وبهجة لأبناء الأمة الإسلامية على اختلاف الأعمار والمستويات .

وقد ربط الدين هذا العيد بقيمة من القيم الاجتماعية ، هى التضحية ، والتضحية فى أبسط معانيها تنازل الفرد عما يملك مما لا يحتاج إليه لمن لا يملك شيئًا وهو فى حاجة إليه ، ولكنها فى ثوبها الإسلامى المنشود لهذا اليوم تعنى أن يذبح القادر أضحية يوزع منها قدرًا على الفقراء ، ويهدى قدرًا لذوى الأرحام والأصدقاء ، ويوسع على عياله ، يطعمهم ويدخر إذا شاء .

فالعلاقات الاجتماعية فى هذا اليوم كما يريد لها الدين علاقات ود وعطاء ، وحب وصفاء ، علاقات سخاء نفسى ومادى يتمثل فى توزيع قدر محدد من الأضحية على الأحباب من الفقراء والأقرباء ، وعلاقات رضا نفسى ومادى لدى أولئك الآخذين ، وتلك حالة من التواصل الاجتماعى المحمود ؛ تضفى على العيد معنى اجتماعيًا ، وتمنحه طاقة من الحيوية ، مصدرها التضحية الكريمة فى يوم شاء الله له أن يكون كريماً .

أرأيتم أيها المسلمون شعار عيدكم ، لقد بدأتموه بالتكبير منذ طلوع فجره ، ولسوف تغمرونه بهذا التكبير طوال أيامه الأربعة ، ولكن هتافكم بأن الله أكبر ، مقترن بإذعانكم لأمر الله الأكبر ، وإحسانكم إلى عباده ، الذين لم يبلغوا ما بلغتم من طيبات الحياة ، فعجزوا عن التضحية حين قدرتم عليها . ومن هنا نفهم ما تضمنته الآيات الكريمة : ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ، لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ، فَإِذَا

وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ، كَذٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا ، وَلٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ، كَذٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ، وبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ)[1] .

لقد جعل الله سبحانه هذه الضحية شعارًا للأُمة الحنيفية منذ عزم الخليل إبراهيم على ذبح ولده إسماعيل ، تصديقًا لأمر الله فى رؤياه الصادقة ، ولكن رحمة الله تداركت إسماعيل ففدته بذبح عظيم ، ليبقى إسماعيل ، وليخرج من نسله محمد ، المبعوث رحمة للعالمين ، وتشاءُ كلمة الله أن تقترن عبادة الحج إلى بيته الحرام ، الذى بناه إبراهيم وإسماعيل بتقديم هذه الأضاحى ، رمزًا إلى تلكم الوحدة الربانية ، التى ربطت الإسلام بالحنيفية .

فالأضاحى شعيرة من شعائر الله بالنسبة إلى الحجيج فى مكة وغير الحجيج فى سائر البلاد الأُخرى ـ الإسلامية ـ يتقرب بها المضحون إلى الله ، متى قدروا عليها ، إلى جانب ما يصيبهم بفضلها من خير ، حين تتقارب قلوب الفقراء والأغنياء ، وحين تنتفى من المجتمع خلال هذه الأيام السعيدة صورة العوز والفاقة ، فيشبع من لم يكن يشبع ، ويطعمه القادرون ، كما تختفى تبعًا لذلك صورة الحقد الاجتماعى الذى يتجلى فى أبشع صوره عندما يحس المتحاج أن القادر لم يبال به ، ولم يلتفت إلى حاجته ، فشبع وتركه جائعًا ، وسعد وتركه بائساً .

وتلكم هى اللمحة التى عبر عنها الله سبحانه ، فى قوله : (لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا ، وَلٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) . فاللحوم والدماء تنالكم أنتم ، وتتعاطونها فيما بينكم ، أما ماينتج عن هذه التضحية فإن أعظم ما فيه صلة العبد بربه ، والتقوى التى تشع من تصرفه على نحو يرضى الله سبحانه ،

---

(١) سورة الحج : ٣٦ و ٣٧ .

فالعطاءُ من الجانب المادى ، دون مقابل ، ولكنه فى ضوءِ الإيمان بالجزاء الأُخروى تقابله سعادة النفس بالتعامل مع الله ، وأى سعادة تعدل إحساس المرء بالأمن يتخلل أحناء قلبه ، فينطلق لسانه مكبرًا ، شاكرًا لله أن هداه إلى معرفته ، وأفاض عليه نعمه ، وسخر له ما فى البر والبحر جميعاً منه : (كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ، وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) .

ومن هنا عبر القرآن عن ذبح الأضاحى تعبيرًا يرفعه إلى درجة النسك ، فقال سبحانه : (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ) . وقد فسر أكثر العلماء المنسك فى الآية بالذبح ، وإن كان عامًّا فى سائر أبواب العبادات ، لأن الذبح فى هذا اليوم هو أرقى وأعظم ما يتقرب به المتقون إلى الله سبحانه .

ومن أجل هذا اهتم الدين بأن يباشر المؤمن بنفسه عملية الذبح ، فيشهد ذبح أضحيته بنفسه ، وقد جاء فى هذا حديث عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما عَمِلَ آدَمِيٌّ مِنْ عَمَلٍ يَوْمَ النَّحْرِ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ إِهْرَاقِ الدَّمِ ، وإِنَّهُ لَتَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَشْعَارِهَا وَأَظْلَافِهَا ، وإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ مِنَ الأَرْضِ ، فَطِيبُوا بِهَا نَفْساً »[1] .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا فَاطِمَةُ قُومِى إِلَى أُضْحِيَتِكِ فَاشْهَدِيهَا ، فَإِنَّ لَكِ بِأَوَّلِ قَطْرَةٍ تَقْطُرُ مِنْ دَمِهَا أَنْ يُغْفِرَ لَكِ ما سَلَفَ من ذُنُوبِكِ ، قالت : يا رسول الله : ألنا خاصةً أَهْلَ الْبَيْتِ ، أو لَنَا ولِلْمُسْلِمِين؟ . . قال : بل لَنَا ولِلْمُسْلِمِين »[2] .

---

(١) حديث صحيح الإسناد رواه ابن ماجه والترمذى والحاكم .

(٢) رواه البزار ، وأبو الشيخ بن حبان فى كتاب الضحايا ، وروى أيضاً عن طريق أبى القاسم الأصبهانى عن على ، وقد حسن بعض الأئمة روايته عن على .

وليس أسمى من تلك الصورة التى رسمها حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لقيمة إهراق دماء الأضاحى ، فليس المراد قطعاً مجرد الإهراق ، وإنما المراد ما يكون لله منه . ومن السنة أن يشهد المرءُ أضحيته عند تهيئتها ، لما ينبعث فى نفسه حينئذ من إحساس بتكريم الله له حيث أقدره على الإحسان ، ثم إحساسه بالعبرة حين يشهد لحظة مفارقة الحى للحياة ، وهى لحظة جليلة ، تتجسد خلالها معانى التقوى ، فيقبل العبد على ربه ، زاهداً فى الملذات ، راغباً فى الباقيات الصالحات : (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وخَيْرٌ مَرَدًّا)[1].

أيها المسلمون . . .

هذه هى صورة العيد التى رسمها الدين ، بل هذا جانب من جوانب الصورة ، وإن الجوانب الأخرى التى أرادها الإسلام للعيد لتكمِّل – فى الحق – تلك الصورة المثالية التى عاشها سلفنا الصالح أيام العيد . والإسلام الذى شرع الأضحية منسكاً للأمة ، أراد بذلك أن يحس المسلمون فى مكة وفى سائر البلاد بالوحدة الوجدانية التى تربط بعضهم ببعض ، فالذين لم ينالوا حظ الحج والزيارة مقبلون أيضًا على ما يقبل عليه حجاج البيت الحرام فى ذلك اليوم الأغر : «وتَشَبَّهُوا إنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ» .

والمسلم فى تمثله لهذا المعنى السامى يحاول أن يدنو بسلوكه من المستوى الذى تحقق للحجيج ، فإذا تذكر ما هم عليه من طهارة وعفاف ، وتنزه عن الإسفاف ، وتشاغل بالذكر والتقرب – حاول أن يتأسى بحالهم ، وعمل على تنقية سلوكه من العادات والأحوال السيئة ، وربما كان أبسط آداب الحجيج ما فرضه الله سبحانه عليهم من أنه : (لَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ، ولَا

(١) سورة مريم : ٧٦ .

جِدَالَ فِى الْحَجِّ)[١] ، فالمسلم الحق يجد نفسه مندوباً إلى أن يلتزم بهذا الأدب الإلٰهى الذى يتقيد به الحجيج . غير أن هنالك معنى آخر أشمل من ذلك وأكمل ، هو إحساس المؤمن فى مواجهة بيت الله بالصفاء الداخلى ، الذى يسقط الأحقاد ، ويتناسى ألوان النزاع والتخاصم على شئون الحياة ، وأنسب وقت لتصفية هذه التركة الدنيوية الثقيلة هو مناسبة العيد ، فجدير بمن أقبل على الله ، ونفذ أمره فى التضحية بماله ، أن يضحى بأهوائه ، أو بنزعاته الشخصية التى حتمت عليه من قبل أن يخاصم فلاناً ، أو أن يُبغِض فلاناً ، فالمال أهون ما يضحى به الإنسان ، غير أن التضحية بالأهواء وبالنوازع ، هى أعسر شىء يتكلفه المسلم فى العيد ، ولكنه ليس عسيراً على من يسره الله عليه ، والمهم أن هذا الاستعداد للتضحية بالخصومات يجد فى مناسبة العيد موسماً من مواسم التألق ، فالخصوم فى العيد متحابون ، والأباعد متقاربون ، وعواطف الخير تقود الناس إلى حيث يكون اجتماعهم ، وتعاونهم على البر والتقوى ، حتى لتكتمل فى العيد تلك الصورة المثالية التى عبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم فيما حدث به النعمان بن بشير : «تَرَى الْمُؤْمِنِين فى تَرَاحُمِهِم وتَوَادِّهِم وتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ منه تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسدِهِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى »[٢].

وإن هذه الموجة من الحب والتعاطف فى العيد لتفيض من مستوى الكبار إلى مستوى الأطفال الصغار ، فهم يلعبون ويمرحون ، ولكن فى حدود اللهو البرىء ، الذى لا يفسد الأخلاق ، ولا ينفى الاعتدال .

وأهم ما يمكن أن يتعلمه الأطفال فى العيد هو إحساسهم بوجوب ادخار ما يبعثرون من نقود فيما لا ينفع ، فإن الوطن الذى أنجبهم ورعاهم ،

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

ينتظر منهم دائماً أن يفكروا فى واجبهم نحوه فى كل الظروف ، والعيد من المناسبات التى يملك فيها الطفل قدرًا زائدًا من النقود ، يتحول عند عدم التوجيه إلى رماد ، وفرقعات مفزعة ، ومعاكسات يقبل عليها بعض الفتيان لا تليق بحياة الجد والاستقامة التى يرضاها لهم الإسلام .

فواجبكم – أيها المسلمون – نحو أبنائكم ، هو واجبكم نحو أنفسكم ، وإهمالكم لهم إهمال لأنفسكم ، التى دعاكم الله ورسوله إلى العناية بها ، فى قوله سبحانه : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)[1] . فلا تتركوا أبناءكم فى الشوارع كالسوائم الضالة ، ولكن اصحبوهم إلى المتنزهات والحدائق ، لتراقبوا سلوكهم ، واصحبوهم إلى المساجد ليرفعوا أصواتهم بالتكبير ، واصحبوهم فى توزيع لحوم الأضاحى ليتدربوا على الإحسان العملى ، واصحبوهم إلى حيث تتنازلون عن خصوماتكم ليشهدوا بأعينهم كيف تتصافح الأيدى ، وتتصافى القلوب .

أيها المسلمون . . .

العيد الذى تستقبلون فرصةٌ ربانية ، أرادها الله لكم سعادة وصفاء ، وإحساناً ، فلا تدعوا من لحظات العيد لحظة بدون صفاء ، وبدون إحسان ، وبدون إسعاد للآخرين ولأنفسكم ، واذكروا دائماً أن عيدكم الأكبر يوم تتحقق لوطنكم العربى المسلم وحدته وتنتفى من أرجائه عوامل فرقته ، وتلتقى جهود المسلمين فى كل مكان على إعلاء كلمته ، وترتفع حناجرهم هاتفة بذلك الهتاف الحبيب المدوى : « اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ صَدَقَ وَعْدَهُ ونَصرَ عبْدَهُ وأَعَزَّ جندَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وحَدَهْ ، اللهُ أَكْبَرُ كَبيرًا ، والْحَمْدُ للهِ كَثِيرًا ، وسُبْحَانَ اللهِ بكْرَةً وأَصيلًا) . وكل عام أنتم بخير .

(١) سورة الشمس : من ٧ إلى ١٠ .